

## سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

هذه السورة أول ما نزل من القرآن؛ في قول معظم المفسرين، نزل بها جبريل على النبي ﷺ وهو قائم على حراء، فعلمه خمس آيات من هذه السورة، وقيل: إن أول ما نزل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، قاله جابر بن عبد الله؛ وقد تقدم، وقيل: فاتحة الكتاب أول ما نزل؛ قاله أبو ميسرة الهمداني، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أول ما نزل من القرآن ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] والصحيح الأول<sup>(١)</sup>، قالت عائشة: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة؛ فجاهه الملك فقال ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، خرجه البخاري<sup>(٢)</sup>.

وفي الصحيحين عنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق<sup>(٣)</sup> الصبح، ثم حجب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، يتحنث<sup>(٤)</sup> فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك؛ ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها؛ حتى فجئه<sup>(٥)</sup> الحق وهو في غار حراء، فجاهه الملك، فقال: ﴿اقْرَأْ﴾ فقال: «ما أنا بقارئ» قال: « فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني »<sup>(٦)</sup> فقال: ﴿اقْرَأْ﴾ فقلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ﴾ فقلت: «ما أنا بقارئ»، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾<sup>(٧)</sup>، وقال أبو رجاء العطاردي: وكان أبو موسى الأشعري يطوف علينا في هذا المسجد: مسجد البصرة، فيقعنا حلقا، فيقرئنا القرآن؛ فكانني أنظر إليه بين ثوبين له أبيضين، وعنه أخذت هذه السورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وكانت أول سورة أنزلها الله على محمد ﷺ<sup>(٨)</sup>، وروت عائشة رضي الله عنها أنها أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ، ثم بعدها ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾، ثم بعدها ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ثم بعدها

(١) سبقت هذه الآثار جميعاً في مقدمة الكتاب .

(٢) صحيح : البخاري (٤٩٥٥) في التفسير ، وانظر ما بعده .

(٣) فلق ، و فرق : مثل ضوء الصبح . اللسان «فلق، فرق» .

(٤) يتحنث : يتعبد النهاية (١ / ٤٤٩) .

(٥) وفي رواية للصحيح : حتى جاء الحق .

(٦) أرسلني : تركني .

(٧) متفق عليه : البخاري (٣) في بدء الوحي ، ومسلم (١٦٠) في الإيمان ضمن حديث طويل .

(٨) كذا عند الطبري (٣٠ / ٢٧٦) في تفسيره ، والفاكهي (٤ / ١٠) في أخبار مكة .

﴿والضحى﴾ (١) ذكره الماوردي، وعن الزهري: أول ما نزل سورة ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فحزن رسول الله ﷺ، وجعل يعلو شواهي الجبال، فأناه جبريل فقال له: « إنك نبي الله » فرجع إلى خديجة وقال: « دثروني وصبوا علي ماءً بارداً » فنزل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (٢) [المدثر: ١]، ومعنى ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك، وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كل سورة، فمحل الباء من ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ النصب على الحال، وقيل: الباء بمعنى على، أي: اقرأ على اسم ربك، يقال: فعل كذا باسم الله، وعلى اسم الله، وعلى هذا فالمقروء محذوف، أي: اقرأ القرآن، وافتتحه باسم الله، وقال قوم: اسم ربك هو القرآن، فهو يقول: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اسم ربك، والباء زائدة؛ كقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ بِالذُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وكما قال:

سُودُ الْمُحَاجِرِ لَا يَقْرَأُ بِالسُّورِ

أراد: لا يقرأ السور، وقيل: معنى ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر اسمه، أمره أن يبتدئ القراءة باسم الله.

### ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ يعني ابن آدم، ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: من دم؛ جمع علقة، والعلقة الدم الجامد؛ وإذا جرى فهو المسفوح، وقال ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ فذكره بلفظ الجمع؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكلهم خلقوا من علق بعد النطفة، والعلقة: قطعة من دم رطب، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه، فإذا جفت لم تكن علقة، قال الشاعر:

تَرَكْنَاهُ يَخْرُ عَلَى يَدَيْهِ يَمِجُّ عَلَيْهِمَا عَلَقُ الْوَتِينِ

وخص الإنسان بالذكر تشريفاً له، وقيل: أراد أن يبين قدر نعمته عليه، بأن خلقه من علقة مهينة، حتى صار بشراً سوياً، وعاقلاً مميّزاً.

### ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ تأكيد، وتم الكلام، ثم استأنف فقال: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي: الكريم، وقال الكلبي: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يعجل بعقوبتهم (٣)، والأول أشبه بالمعنى، لأنه لما ذكر ما تقدم من نعمه، دل بها على كرمه، وقيل: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ﴾ أي: اقرأ يا محمد وربك يعينك ويفهمك، وإن كنت غير القارئ، و﴿الأكرم﴾ بمعنى المتجاوز عن جهل العباد.

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) مرسل: ووصله ابن أبي حاتم (٨/ ٤٧٨) في التفسير من طريق الزهري، عن عروة عن عائشة، ولا يليق به الردى من شاهق الجبال كما قال الألباني (١٠٥٢) في الضعيفة.

(٣) انظر: تفسير البغوي (٨/ ٤٧٩).

## ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ يعني : الخط والكتابة ؛ أي : علم الإنسان الخط بالقلم ، وروى سعيد عن قتادة قال : القلم نعمة من الله تعالى عظيمة ، لولا ذلك لم يقم دين ، ولم يصلح عيش (١) ، فدل على كمال كرمه سبحانه ، بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونيه على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة ، التي لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ؛ ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا ، وسمي قلماً لأنه يقلم ؛ أي : يقطع ، ومنه تقليم الظفر ، وقال بعض الشعراء المحدثين يصف القلم :

فكأنه والحبرُ يَخْضِبُ رَأْسَهُ      شَيْخٌ لَوْصَلْ خَرِيدَةٌ يَتَصَنَعُ  
لَمْ لَا أَلْحَظْهُ بَعِينَ جَلَالَةَ      وَبِهِ إِلَى اللَّهِ الصَّحَائِفُ تُرْفَعُ

وعن عبدالله بن عمرو قال : يا رسول الله ، أكتب ما أسمع منك من الحديث؟ قال : « نعم فاكتب ، فإن الله علم بالقلم » (٢) ، وروى مجاهد عن ابن عمر قال : خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده ، ثم قال لسائر الحيوان : كن ، فكان القلم ، والعرش ، وجنة عدن ، وآدم عليه السلام ، وفيمن علمه بالقلم ثلاثة أقاويل : أحدها : أنه آدم عليه السلام ؛ لأنه أول من كتب ، قاله كعب الأحبار ، الثاني : أنه إدريس ، وهو أول من كتب (٣) ، قاله الضحاك ، الثالث : أنه أدخل كل من كتب بالقلم ؛ لأنه ما علم إلا بتعليم الله سبحانه ، وجمع بذلك نعمته عليه في خلقه ، وبين نعمته عليه في تعليمه ؛ استكمالاً للنعمة عليه .

الثانية : صح عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة ، قال : « لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي » (٤) ، وثبت عنه عليه السلام أنه قال : « أول ما خلق الله : القلم ، فقال له اكتب ، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة ، فهو عنده في الذكر فوق عرشه » (٥) ، وفي الصحيح (٦) من حديث ابن مسعود أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها ملكاً فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها

(١) صحيح : عزاء السيوطي في الدر المنثور (٦ / ٦٢٥) لابن أبي حاتم والطبري .

(٢) رواه الحاكم (٣٥٨) في المستدرک .

(٣) ونقله ابن كثير (١ / ١٥٠) في البداية ، عن ابن إسحاق ، وذكر رأى بعضهم بأنه هو المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي (٥٣٧) عند مسلم وفيه : « إنه كان نبي يخط به - يعني بالرمل ، فمن وافق خطه فذاك » ، اهـ ، وانظر : تفسير الماوردي (٦ / ٣٠٥) .

(٤) متفق عليه : البخاري (٣١٩٤) في بدء الخلق . ومسلم (٢٧٥١ / ١٤) في التوبة كلاهما ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٥) صحيح بنحوه : رواه الترمذي (٢١٩٥) في القدر ، وأبو داود (٤٧٠٠) في السنة ، عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه ، وصححه الألباني في الموضعين .

(٦) متفق عليه بغير هذا اللفظ : البخاري (٣٣٣٢) في بدء الخلق ، ومسلم (٢٦٤٣ / ١) في القدر .

وعظمتها، ثم يقول: يا رب، أذكر أم أنسى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول: يا رب أجله، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقه، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ﴿١﴾ كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠] .

قال علماؤنا: فالأقلام في الأصل ثلاثة: القلم الأول: الذي خلقه الله بيده، وأمره أن يكتب، والقلم الثاني: أقلام الملائكة، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال، والقلم الثالث: أقلام الناس، جعلها الله بأيديهم، يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها إلى مآربهم، وفي الكتابة فضائل جمّة، والكتابة من جملة البيان، والبيان مما اختص به آدمي.

الثالثة: قال علماؤنا: كانت العرب أقل الخلق معرفة بالكتابة، وأقل العرب معرفة به المصطفى ﷺ؛ صرف عن علمه، ليكون ذلك أثبت لمعجزته، وأقوى في حجته، وقد مضى هذا مبيّناً في سورة «العنكبوت»، وروى حماد بن سلمة عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفهري، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسكنوا نساءكم الغرف، ولا تعلموهن الكتابة»<sup>(١)</sup>، قال علماؤنا: وإنما حذرهم النبي ﷺ ذلك، لأن في إسكانهن الغرف تطلعا إلى الرجال؛ وليس في ذلك تحصيل لهن ولا تستر، وذلك أنهن لا يملكن أنفسهن حتى يشرفن على الرجال؛ فتحدث الفتنة والبلاء؛ فحذرهم أن يجعلوا لهن غرفا ذريعة إلى الفتنة، وهو كما قال رسول الله ﷺ: «ليس للنساء خير لهن من ألا يراهن الرجال، ولا يرين الرجال»<sup>(٢)</sup>، وذلك أنها خلقت من الرجل، فهمتها في الرجل، والرجل خلقت فيه الشهوة، وجعلت سكنا له، فغير مأمون كل واحد منهما في صاحبه، وكذلك تعليم الكتابة ربما كانت سبباً للفتنة، وذلك إذا علمت الكتابة كتبت إلى من تهوى، والكتابة عين من العيون، بها يبصر الشاهد الغائب، والخط هو آثار يده، وفي ذلك تعبير عن الضمير بما لا ينطلق به اللسان، فهو أبلغ من اللسان، فأحب رسوله ﷺ أن يقطع عنهن أسباب الفتنة؛ تحصيلنا لهن، وطهارة لقلوبهن.

### ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ﴾

قيل ﴿الإنسان﴾ هنا آدم عليه السلام، علمه أسماء كل شيء؛ حسب ما جاء به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] ، فلم يبق شيء إلا وعلم سبحانه آدم اسمه بكل لغة، وذكره آدم للملائكة كما علمه، وبذلك ظهر فضله، وتبين قدره، وثبت نبوته، وقامت حجة الله

(١) موضوع: الحاكم (٢/ ٤٣٠) وصححه، والهيثمي (٤/ ٩٣) ، وعزاه للطبراني في الأوسط بسند فيه: محمد ابن إبراهيم الشامي وهو كذاب .

وقال الذهبي (٦/ ٣٣) في الميزان ، عن ابن حبان : « لا تحل الرواية عنه وكان يضع الحديث » ( ١ هـ ) وقد روره ، عن عائشة - رضي الله عنها - فيما زعموا .

(٢) ضعيف بنحوه : الهيثمي (٤/ ٢٥٥) في المجمع ، عن علي بنحوه ، وعزاه للبخاري ، وقال : «فيه من لا أعرفه ، وفيه علي بن زيد أيضاً» .

قلت : وانظره في نوادر الأصول (٣/ ٨٢) وحلية الأولياء (٢/ ٧٥) بسند فيه علي بن زيد وله مناكير .

على الملائكة وحجته، وامتلئت الملائكة الأمر لما رأت من شرف الحال، ورأت من جلال القدرة، وسمعت من عظيم الأمر، ثم توارثت ذلك ذريته خلفاً بعد سلف، وتناقلوه قوماً عن قوم، وقد مضى هذا في سورة البقرة مستوفى والحمد لله، وقيل ﴿الْإِنْسَانَ﴾ هنا الرسول محمد ﷺ؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وعلى هذا فالمراد بـ ﴿عَلَّمَكَ﴾ المستقبل؛ فإن هذا من أوائل ما نزل، وقيل: هو عام لقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

### ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ قيل: إنه نزل في أبي جهل، وقيل: نزلت السورة كلها في أبي جهل؛ نهى النبي ﷺ عن الصلاة؛ فأمر الله نبيه ﷺ أن يصلي في المسجد ويقرا باسم الرب، وعلى هذا فليست السورة من أوائل ما نزل، ويجوز أن يكون خمس آيات من أولها أول ما نزلت، ثم نزلت البقية في شأن أبي جهل، وأمر النبي ﷺ بضم ذلك إلى أول السورة؛ لأن تأليف السور جرى بأمر من الله، ألا ترى أن قوله تعالى ﴿وَأَنْقُضُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] آخر ما نزل، ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل، و﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقا؛ إذ ليس قبله شيء، والإنسان هنا أبو جهل، والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان، ﴿أَن رَّاهُ﴾ أي: لأنه رأى نفسه استفتى؛ أي: صار ذا مال وثروة، وقال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه، قال: لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون، أتاه أبو جهل فقال: يا محمد تزعم أنه من استفتى طغى؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهباً، لعلنا نأخذ منها، فنطغى فندع ديننا وتتبع دينك، قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال: «يا محمد خيرهم في ذلك فإن شأوا فعلنا بهم ما أرادوه: فإن لم يسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة»<sup>(١)</sup>، فعلم رسول الله ﷺ أن القوم لا يقبلون ذلك؛ فكف عنهم إبقاء عليهم، وقيل ﴿أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾ بالعشيرة والأنصار والأعوان، وحذف اللام من قوله ﴿أَن رَّاهُ﴾ كما يقال: إنكم لتطغون إن رأيتم غناكم، وقال الفراء: لم يقل رأى نفسه، كما قيل قتل نفسه؛ لأن رأى من الأفعال التي تريد اسماً وخبراً، نحو الظن والحسبان، فلا يقتصر فيه على مفعول واحد، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول: رأيتني وحسبتي، ومتى تراك خارجاً، ومتى تظنك خارجاً، وقرأ مجاهد وحמיד وقنبل عن ابن كثير: ﴿أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾ بقصر الهمزة<sup>(٢)</sup>، الباقون ﴿رَّاهُ﴾ بمدها، وهو الاختيار.

### ﴿إِن إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعَىٰ ﴿٣﴾﴾

أي: مرجع من هذا وضغفه، فيجازيه، والرَّجْعَى والمرجع والرَّجُوعُ مصادر؛ يقال: رجع إليه رجوعاً ومرجعاً، ورَّجَعَى على وزن فُعلى.

### ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٤﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ وهو: أبو جهل ﴿عَبْدًا﴾ وهو: محمد ﷺ، فإن أبا جهل قال:

(١) إسناد واه: أبو صالح (بادام) أو (بادان) مولى أم هانئ يكذب علي ابن عباس - رضي الله عنهما .

(٢) قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (١٨٩) .

إن رأيت محمداً يصلي لأطآن على عنقه؛ قاله أبو هريرة، فأنزل الله هذه الآيات تعجباً منه<sup>(١)</sup>، وقيل: في الكلام حذف؛ والمعنى: أمن هذا الناهي عن الصلاة من العقوبة.

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۖ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۗ﴾

أي: أرايت يا أبا جهل إن كان محمد على هذه الصفة، أليس ناهي عن التقوى والصلاة هالكا؟

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۗ أَمْ يَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۗ﴾

يعني أبا جهل كذب بكتاب الله عز وجل، وأعرض عن الإيمان، وقال الفراء: المعنى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۙ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ وهو على الهدى، وأمر بالتقوى، والناهى مكذب متول عن الذكر؛ أي: فما أعجب هذا! ثم يقول: ويله ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى؛ أي: يراه ويعلم فعله؛ فهو تقرير وتوبيخ، وقيل: كل واحد من ﴿أَرَأَيْتَ﴾ بدل من الأول، و﴿أَمْ يَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ الخبر.

﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْهَ لَنْسِفَنَّآلنَآصِيَةَ ۖ نَآصِيَةَ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْهَ﴾ أي: أبو جهل عن أذاك يا محمد، ﴿لَنْسِفَنَّآلنَآصِيَةَ﴾ ﴿لَنْسِفَنَّآلنَآصِيَةَ﴾ لِنَأْخِذَنَّ بِالنَّاصِيَةِ﴾ فلنذله، وقيل: لناخذن بناصيته يوم القيامة، وتطوى مع قدميه، وي طرح في النار، كما قال تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] فالآية - وإن كانت في أبي جهل - فهي عظة للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة، وأهل اللغة يقولون: سفعت بالشيء: إذا قبضت عليه وجذبه جذبا شديداً، ويقال: سفعت بناصية فرسه، قال:

قَوْمٌ إِذَا كَثُرَ الصَّبَاحُ رَأَيْتَهُمْ  
مِنْ بَيْنِ مُلْجَمٍ مَهْرَهُ أَوْ سَافِعٍ

وقيل: هو مأخوذ من سفعت النار والشمس: إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد؛ كما قال:

أَثَافِي سَفَعًا فِي مَعْرَسِ مِرْجَلٍ  
وَنَوِي كَجِذْمِ الْحَوْضِ أَثْلَمَ خَاشِعٍ

والناصية: شعر مقدم الرأس، وقد يعبر بها عن جملة الإنسان؛ كما يقال: هذه ناصية مباركة؛ إشارة إلى جميع الإنسان، وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانتة أخذوا بناصيته، وقال المبرد: السفع: الجذب بشدة؛ أي: لنجرن بناصيته إلى النار، وقيل: السفع: الضرب؛ أي: لننظمن وجهه، وكله متقارب المعنى، أي: يجمع عليه الضرب عند الأخذ؛ ثم يجر إلى جهنم، ثم قال على البدل ﴿نَاصِيَةَ كَآذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي: ناصية أبي جهل كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها، والخاطئ معاقب مأخوذ، والمخطئ غير مأخوذ، ووصف الناصية بالكاذبة الخاطئة، كوصف الوجوه بالنظر في قوله تعالى ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، وقيل: أي: صاحبها كاذب خاطئ؛ كما يقال: نهاره صائم، وليله قائم؛ أي: هو صائم في نهاره، ثم قائم في ليله.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۗ سَدَّعَ الزَّبَانِيَةَ ۗ﴾

قوله تعالى ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي: أهل مجلسه وعشيرته، فليستنصر بهم، ﴿سَدَّعَ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي:

الملائكة الغلاط الشداد - عن ابن عباس وغيره - واحدهم زبني؛ قاله الكسائي، وقال الأخفش: زابن. أبو عبيدة: زبنيّة، وقيل: زباني، وقيل: هو اسم للجمع؛ كالأبابل والعباديد، وقال قتادة: هم الشُرط في كلام العرب، وهو مأخوذ من الزبن وهو الدفع؛ ومنه المزبنة في البيع، وقيل: إنما سما الزبانية لأنهم يعملون بأرجلهم، كما يعملون بأيديهم؛ حكاه أبو الليث السمرقندي - رحمه الله - قال: وروي في الخبر أن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة، وبلغ إلى قوله تعالى: ﴿لَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربك، فقال الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ﴾، فلما سمع ذكر الزبانية رجع فزعا؛ فقيل له: خشيت منه قال لا ولكن رأيت عنده فارسا فهديني بالزبانية، فما أدري ما الزبانية، ومال إلي الفارس، فخشيت منه أن يأكلني<sup>(١)</sup>، وفي الأخبار أن الزبانية رؤوسهم في السماء وأرجلهم في الأرض، فهم يدفعون الكفار في جهنم وقيل: إنهم أعظم الملائكة خلقا، وأشدهم بطشا، والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه، قال الشاعر:

مطاعيم في القُصوى مطاعين في الوغى  
زبانية غلب عظام حلومها

وعن عكرمة عن ابن عباس ﴿سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ﴾ قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه، فقال النبي ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً»<sup>(٢)</sup>، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب، وروى عكرمة عن ابن عباس قال: مر أبو جهل بالنبي ﷺ وهو يصلي عند المقام، فقال: ألم أنك عن هذا يا محمد فأغلظ له رسول الله ﷺ؛ فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني يا محمد، والله إني لأكثر أهل الوادي هذا ناديا؛ فأنزل الله عز وجل ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ﴾، قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب من ساعته، أخرجه الترمذي بمعناه، وقال: حسن غريب صحيح<sup>(٣)</sup>، والنادي في كلام العرب: المجلس الذي يتدي فيه القوم؛ أي: يجتمعون، والمراد أهل النادي؛ كما قال جرير:

لهم مجلسٌ صُهبُ السبَالِ أذلةٌ

وقال زهير:

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههُم

وقال آخر:

واستبَّ بعُدك يا كُليبُ المجلسُ

وقد ناديت الرجل أناديه إذا جالسته، قال زهير:

وجارُ البيتِ والرجلُ المنادي  
أمامَ الحيِّ عقْدُهُما سِوَا

﴿كَلَّا لَا تَطِعَهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل، ﴿لَا تَطِعَهُ﴾ أي: فيما دعاك إليه من ترك الصلاة، ﴿وَأَسْجُدْ﴾ أي: صل لله ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ أي: تقرب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة،

(١) ضعيف: كذا رواه السمرقندي (٣/ ٤٩٥) في بحر العلوم بصيغة التمريض، وهو دليل على ضعفه.

(٢) صحيح: البخاري (٤٩٥٨) في التفسير، والترمذي (٣٣٤٨) في التفسير.

(٣) حسن غريب صحيح: الترمذي (٣٣٤٩) في التفسير وصححه الألباني هناك.

وقيل: المعنى: إذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء، روى عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه، وأحبه إليه، ما كانت جبهته في الأرض ساجدا لله» (١).

قال علماؤنا: وإنما كان ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة؛ ولله غاية العزة، وله العزة التي لا مقدار لها؛ فكلما بعدت من صفته، قربت من جنته، ودنوت من جواره في داره، وفي الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فإنه قمن أن يستجاب لكم» (٢). ولقد أحسن من قال:

وإذا تذلل الرقابُ تواضعا      منا إليك فعزُّها في ذُلِّها

وقال زيد بن أسلم: اسجد أنت يا محمد مصليا، واقترب أنت يا أبا جهل من النار.

قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ﴾ هذا من السجود، يحتمل أن يكون بمعنى السجود في الصلاة، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة في هذه السورة، قال ابن العربي (٣) والظاهر أنه سجود الصلاة لقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (١) عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (٢) أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣) أَلَمْ يَلْعَلْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَه لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (٤) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِفَةٍ فَلْيُدْعَ نَادِيَهُ (٥) سَدَّخَ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تَطْعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، لولا ما ثبت في الصحيح من رواية مسلم وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال: سجدت مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الإشفاق: ١]، وفي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١-١٠] سجدين، فكان هذا نصًّا على أن المراد سجود التلاوة (٤). وقد روى ابن وهب، عن حماد بن زيد، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبیش، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: عزائم السجود أربع ﴿الْم﴾ و﴿حَم﴾ [تنزيل من الرحمن الرحيم] و﴿النَّجْم﴾ و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ (٥)، وقال ابن العربي: وهذا إن صح يلزم عليه السجود الثاني من سورة «الحج»، وإن كان مقتصرًا بالركوع؛ لأنه يكون معناه اركعوا في موضع الركوع، واسجدوا في موضع السجود، وقد قال ابن نافع ومطرف: وكان مالك يسجد في خاصة نفسه بخاتمة هذه السورة من ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وابن وهب يراها من العزائم.

قلت: وقد روينا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن ابن عمر قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «اكتبها يا معاذ» فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون - وهي الدواة - فكتبها معاذ؛ فلما بلغ ﴿كَلَّا لَا تَطْعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ سجد اللوح، وسجد القلم، وسجدت النون، وهم يقولون: اللهم ارفع به ذكرا، اللهم احطط به وزرا، اللهم اغفر به ذنبًا، قال معاذ: سجدت، وأخبرت رسول الله ﷺ، فسجد (٦). ختمت السورة، والحمد لله على ما فتح ومنح وأعطى، وله الحمد والمنة.

(١، ٢) صحيحان: وقد سبقا.

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٩٦٠) للقاظمي ابن العربي المالكي.

(٤) صحيح: مسلم (٥٧٨) في المساجد ومواضع الصلاة.

(٥) إسناده حسن: وإن كان الهيثمي قد رواه (٢/ ٢٨٥) في المجمع من طريق الطبراني في الأوسط وفيه أخطاء وهو ضعيف، وكذا رواه الحاكم (٣٩٥٧) فلعلها شواهد له.

(٦) موضوع: لسان الميزان (١/ ١٠٠) وتنزيه الشريعة (١/ ٢٨٦) لابن عراق، والشوكاني (٣/ ٣) في الفوائد المجموعة، والدارقطني (١/ ٢٨١) في سؤالات حمزة، وعلته إبراهيم الخواص، كان يروي الموضوعات إسنادًا ومتنًا.

## سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ يعني: القرآن، وإن لم يجز له ذكر في هذه السورة؛ لأن المعنى معلوم، والقرآن كله كالسورة الواحدة، وقد قال ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال: ﴿حَمَّ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ ﴾، [الدخان: ٣] يريد: في ليلة القدر، وقال الشعبي: المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر<sup>(١)</sup>، وقيل: بل نزل به جبريل عليه السلام جملة واحدة في ليلة القدر، من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، إلى بيت العزة، وأمله جبريل على السفارة، ثم كان جبريل ينزله على النبي ﷺ نجوماً نجوماً، وكان بين أوله وآخره ثلاث وعشرون سنة؛ قاله ابن عباس، وقد تقدم في سورة البقرة، وحكى الماوردي عن ابن عباس قال: نزل القرآن في شهر رمضان، وفي ليلة القدر، في ليلة مباركة، جملة واحدة من عند الله، من اللوح المحفوظ إلى السفارة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا؛ فنجمته السفارة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، ونجمه جبريل على النبي ﷺ عشرين سنة، قال ابن العربي «وهذا باطل؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة»<sup>(٢)</sup>.

قوله تعالى: ﴿ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ قال مجاهد: في ليلة الحكم<sup>(٣)</sup>، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ قال: ليلة الحكم، والمعنى ليلة التقدير؛ سميت بذلك لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره، ويسلمه إلى مديرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبريل، عليهم السلام<sup>(٤)</sup>، وعن ابن عباس قال: يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت، حتى الحاج، قال عكرمة: يكتب حاج بيت الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، ما يغادر منهم أحد، ولا يزداد فيهم، وقاله سعيد بن جبير<sup>(٥)</sup>، وقد مضى في أول سورة الدخان هذا المعنى، وعن ابن عباس أيضاً: أن الله تعالى يقضي الأفضية في ليلة نصف شعبان، ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر، وقيل: إنما سميت بذلك لعظمتها وقدرها وشرفها، من قولهم: لفلان قدر؛ أي شرف ومنزلة، قاله الزهري وغيره،

(١) صحيح إلى الشعبي: تفسير الطبري (٣٠٠ / ٢٨٢) وهذا المعنى الذي نرتضيه.

(٢) هذا باطل كما قال المصنف رحمه الله - نقلًا عن ابن العربي المالكي ومنجمًا - مفرقًا، وقد سبق الحديث عنه في سورة «البقرة».

(٣) صحيح: ابن أبي حاتم (١٢ / ٤٣٥) في تفسيره.

(٤) ولا يصح تسمية ملك الموت (عزرائيل) فلم يصح به كلام من القرآن، أو من صحيح السنة المطهرة.

(٥) كذا عند الطبري (٣٠٠ / ٢٨٣) في تفسيره.

وقيل: سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدرًا عظيمًا، وثوبًا جزيلاً، وقال أبو بكر الوراق: سميت بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خطر يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحيها، وقيل: سميت بذلك لأنه أنزل فيها كتابًا ذا قدر، على رسول ذي قدر، على أمة ذات قدر، وقيل: لأنه ينزل فيها ملائكة ذوي قدر وخطر، وقيل: لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة، وقال سهل: سميت بذلك لأن الله تعالى قدر فيها الرحمة على المؤمنين، وقال الخليل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الطلاق: ٧] أي ضيق.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿﴾

قال الفراء: كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أدراه، وما كان من قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [الأحزاب: ٦٣] فلم يدره، وقاله سفيان، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ بين فضلها وعظمتها، وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل، وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر، والله أعلم، وقال كثير من المفسرين: أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وقال أبو العالية: ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون فيه ليلة القدر، وقيل: عنى بألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] يعني: جميع الدهر، وقيل: إن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر، ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر، فجعل الله تعالى لأمة محمد ﷺ عبادة ليلة خيراً من ألف شهر كانوا يعبدونها، وقال أبو بكر الوراق: كان ملك سليمان خمسمائة شهر، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر فصار ملكهما ألف شهر؛ فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما، وقال ابن مسعود: إن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر؛ فعجب المسلمون من ذلك؛ فنزلت ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الدخان: ٣] الآية<sup>(١)</sup>، ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، التي لبس فيها الرجل سلاحه في سبيل الله، ونحوه عن ابن عباس<sup>(٢)</sup>، وهب بن منبه: إن ذلك الرجل كان مسلماً، وإن أمه جعلته ندرا لله، وكان من قرية قوم يعبدون الأصنام، وكان يسكن قريباً منها؛ فجعل يغزوهم وحده، ويقتل ويسبي ويجاهد، وكان لا يلقاهم إلا بلحبي بعير، وكان إذا قاتلهم وقتلوه وعطش، انفجر له من اللحيين<sup>(٣)</sup> ماء عذب، فيشرب منه، وكان قد أعطي قوة في البطش، لا يوجعه حديد ولا غيره، وكان اسمه شمسون، وقال كعب الأحبار: كان رجلاً ملكاً في بني إسرائيل، ففعل خصلة واحدة، فأوحى الله إلى نبي زمانهم: قل لفلان يتمنى، فقال: يا رب أتمنى أن أجاهد بمالي وولدي ونفسي، فرزقه الله ألف ولد، فكان يجهز الولد بماله في عسكر، ويخرجه مجاهداً في سبيل الله، فيقوم شهراً ويقتل ذلك الولد، ثم يجهز آخر بماله في عسكر، فكان كل ولد

(١) ٢، ١) مرسلان ومنقطعان: الطبري (٣٠ / ٢٨٤، ٢٨٥) في تفسيره، وتفسير ابن أبي حاتم (١٢ / ٤٣٤، ٤٣٥).

(٢) اللحيان - بفتح اللام وتشديدها وسكون الحاء: عظم الخنك الذي عليه الأسنان. اللسان «لحي».

يقتل في الشهر، والملك مع ذلك قائم الليل، صائم النهار؛ فقتل الألف ولد في ألف شهر، ثم تقدم فقاتل فقتل، فقال الناس: لا أحد يدرك منزلة هذا الملك؛ فأنزل الله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ من شهور ذلك الملك، في القيام والصيام والجهاد بالمال والنفس والأولاد في سبيل الله<sup>(١)</sup>، وقال علي وعروة: ذكر النبي ﷺ أربعة من بني إسرائيل، فقال: «عبدوا الله ثمانين سنة، لم يعصوه طرفة عين»؛ فذكر أيوب وزكريا، وحزقيل بن العجور ويوشع بن نون؛ فعجب أصحاب النبي ﷺ من ذلك، فأناه جبريل فقال: يا محمد عجبت أمك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوا الله طرفة عين، فقد أنزل الله عليك خيرا من ذلك؛ ثم قرأ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، فسر بذلك رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>، وقال مالك في «الموطأ» من رواية ابن القاسم وغيره: سمعت من أثق به يقول: إن رسول الله ﷺ أرى أعمار الأمم قبله، فكانه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر؛ فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيرا من ألف شهر<sup>(٣)</sup>، وفي الترمذي، عن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ أرى بني أمية على منبره، فسأه ذلك؛ فنزلت ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، يعني: نهرا في الجنة، ونزلت ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يملكها بعدك بنو أمية، قال القاسم بن الفضل الحداني: فعددناها، فإذا هي ألف شهر، لا تزيد يوما، ولا تنقص يوما، قال: حديث غريب<sup>(٤)</sup>.

### ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ﴾ أي تهبط من كل سماء، ومن سدرة المنتهى؛ ومسكن جبريل على وسطها، فينزلون إلى الأرض ويؤمنون على دعاء الناس، إلى وقت طلوع الفجر؛ فذلك قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ﴾، ﴿وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: جبريل عليه السلام، وحكى القشيري: أن الروح صنف من الملائكة، جعلوا حفظة على سائرهم، وأن الملائكة لا يرونهم، كما لا ترى نحن الملائكة، وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة، وأقربهم من الله تعالى، وقيل: إنهم جند من جند الله عز وجل من غير الملائكة، رواه مجاهد عن ابن عباس مرفوعا؛ ذكره الماوردي<sup>(٥)</sup> وحكى القشيري: قيل هم صنف من خلق الله يأكلون الطعام، ولهم أيد وأرجل؛ وليسوا ملائكة، وقيل: ﴿الرُّوحُ﴾ خلق عظيم يقوم صفا، والملائكة كلهم صفا، وقيل: ﴿الرُّوحُ﴾ الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة في هذه الليلة على أهلها؛ دليله ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]، أي بالرحمة، ﴿فِيهَا﴾ أي في ليلة القدر، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بأمره، ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أمر بكل أمر قدره الله وقضاه في تلك السنة إلى قابل؛ قاله ابن عباس؛ كقوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي

(١) (٢، ١) مرسلان ومنقطعان: الطبري (٣٠ / ٢٨٤، ٢٨٥) في تفسيره، وتفسير ابن أبي حاتم (١٢ / ٤٣٤، ٤٣٥).

(٣) مرسل ضعيف: مالك (١ / ٣٢١) في الاعتكاف بلاغا.

(٤) غريب ضعيف: الترمذي (٣٣٦١) في التفسير، وقال: «غريب»، وأنكره ابن كثير (٨ / ٣٤٥، ٣٤٦) في

تفسيره، وكذا (٤ / ٥٣٠) في البداية، وأعله الذهبي (٤ / ٣٩٦) في السير بالانقطاع وضعفه الالباني.

(٥) سبق تضعيف هذه الآثار كلها في سورة «النبأ».

بأمر الله، وقراءة العامة: ﴿تَنْزَلُ﴾ بفتح التاء؛ إلا أن البيهقي شدد التاء، وقرأ طلحة بن مصرف وابن السميع بضم التاء على الفعل المجهول، وقرأ علي وابن عباس وعكرمة والكلبي: «من كل امرئ»، وروي عن ابن عباس أن معناه: من كل ملك؛ وتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل فيها مع الملائكة، فيسلمون على كل امرئ مسلم، «فمن» بمعنى على، وعن أنس قال: قال النبي ﷺ: إذا كان ليلة القدر نزل جبريل في كعبة من الملائكة، يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى (١).

### ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾

قيل: إن تمام الكلام ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ثم قال ﴿سَلَامٌ﴾، روي ذلك عن نافع وغيره (٢)؛ أي: ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شر فيها، ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي إلى طلوع الفجر، قال الضحاك: لا يقدر الله في تلك الليلة إلا السلامة، وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا والسلامة (٣) وقيل: أي هي سلام؛ أي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة، وكذا قال مجاهد: هي ليلة سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى (٤)، وروي مرفوعاً، وقال الشعبي: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد، من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر؛ يبرون على كل مؤمن، ويقولون: السلام عليك أيها المؤمن (٥)، وقيل: يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض فيها، وقال قتادة: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾: خير هي، ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي: إلى مطلع الفجر، وقرأ الكسائي وابن محيصن: «مَطْلَعٍ» بكسر اللام، الباقون بالفتح، والفتح والكسر: لفتح المصدر، والفتح الأصل في فعل يفعل؛ نحو المقتل والمخرج، والكسر على أنه مما شذ عن قياسه؛ نحو المشرق والمغرب والمنبت والمسكن والمنسك والمحشر والمسقط والمجزر، حكى في ذلك كله الفتح والكسر، على أن يراد به المصدر لا الاسم.

### وهنا ثلاث مسائل:

**الأولى:** في تعيين ليلة القدر؛ وقد اختلف العلماء في ذلك، والذي عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين؛ لحديث زر بن حبیش قال: قلت لأبي بن كعب: إن أخاك عبدالله بن مسعود يقول: من يقيم الحول يصب ليلة القدر، فقال: يغفر الله لأبي عبد الرحمن! لقد علم أنها في العشر الأواخر من رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين؛ ولكنه أراد ألا يتكل الناس؛ ثم حلف لا يستثني: أنها ليلة سبع وعشرين، قال قلت: بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالآية ﴿لَيْتِي أَخْبَرْنَا بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ﴾،

(١) ضعيف: البيهقي (٣/ ٣٤٣) في الشعب، وقال: «تفرد به أحمد بن عبد العزيز، عن أصرم بن حوشب»،

وذكره المنذري (٢/ ٦٢) في الترغيب مطولاً، وقال: «ليس فيه من أجمع على ضعفه».

قلت: وهذا منه وهم فإن أصرم بن حوشب متروك الحديث كما في التاويخ الصغير والأوسط (٢/ ٢٩٠) للبخاري - رحمه الله - والكعبة: الجماعة. النهاية (٤/ ١٤٤).

(٢ - ٥) مراسيل ومقاطع: لا تستند إلى وحي، وانظر الطبري (٣٠/ ٢٨٦) في تفسيره، والدر المنثور (٦/ ٦٣٠) للسيوطي.

أو بالعلامة أن الشمس تطلع يومئذ لا شعاع لها ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وخرجه مسلم<sup>(١)</sup> ، وقيل : هي في شهر رمضان دون سائر العام ؛ قاله أبو هريرة وغيره ، وقيل : هي في ليالي السنة كلها ، فمن علق طلاق امرأته أو عتق عبده بليلة القدر ، لم يقع العتق والطلاق إلا بعد مضي سنة من يوم حلف ، لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك ، ولم يثبت اختصاصها بوقت ؛ فلا ينبغي وقوع الطلاق إلا بمضى حول ، وكذلك العتق ؛ وما كان مثله من يمين أو غيره ، وقال ابن مسعود : من يقيم الحول يصيبها ؛ فبلغ ذلك ابن عمر ، فقال : يرحم الله أبا عبدالرحمن ! أما إنه علم أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان ، ولكنه أراد ألا يتكل الناس ، وإلى هذا القول ذهب أبو حنيفة أنها في جميع السنة ، وقيل عنه : إنها رفعت - يعني ليلة القدر - وأنها إنما كانت مرة واحدة ؛ والصحيح أنها باقية ، وروى عن ابن مسعود أيضا : أنها إذا كانت في يوم من هذه السنة ، كانت في العام المقبل في يوم آخر ، والجمهور على أنها في كل عام من رمضان ، ثم قيل : إنها الليلة الأولى من الشهر ؛ قاله أبو رزين العقيلي ، وقال الحسن وابن إسحاق وعبدالله بن الزبير : هي ليلة سبع عشرة من رمضان ، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر ، كأنهم نزعوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقْيِ الْجَمْعَانِ ﴾ [الأنفال: ٤١] ، وكان ذلك ليلة سبع عشرة ، وقيل : هي ليلة التاسع عشر ، والصحيح المشهور : أنها في العشر الأواخر من رمضان ؛ وهو قول مالك والشافعي والأوزاعي وأبي ثور وأحمد ، ثم قال قوم : هي ليلة الحادي والعشرين ، ومال إليه الشافعي رضي الله عنه ، لحديث الماء والطين ورواه أبو سعيد الخدري ، خرجه مالك وغيره ، وقيل ليلة الثالث والعشرين ؛ لما رواه ابن عمر أن رجلا قال : يا رسول الله إني رأيت ليلة القدر في سابعة تبقى ، فقال النبي ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين ، فمن أراد أن يقوم من الشهر شيئا فليقم ليلة ثلاث وعشرين »<sup>(٢)</sup> ، قال معمر : فكان أيوب يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمس طيبا ، وفي «صحيح» مسلم أن النبي ﷺ قال : « إني رأيت أني أسجد في صبيحتها في ماء وطين »<sup>(٣)</sup> ، قال عبدالله بن أنيس : فرأيت في صبيحة ليلة ثلاث وعشرين في الماء والطين ، كما أخبر رسول الله ﷺ ، وقيل : ليلة خمس وعشرين ؛ لحديث أبي سعيد الخدري : أن رسول الله ﷺ قال : « التمسوها في العشر الأواخر في تاسعة تبقى ، في سابعة تبقى ، في خامسة تبقى »<sup>(٤)</sup> ، رواه مسلم ، قال مالك : يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين ، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين ، والخامسة ليلة خمس وعشرين ، وقيل : ليلة سبع وعشرين ، وقد مضى دليله ، وهو قول علي رضي الله عنه وعائشة ومعوية وأبي بن كعب ، وروى ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « من كان متحررا ليلة القدر ، فليتحرها ليلة سبع وعشرين »<sup>(٥)</sup> .

(١) صحيح : مسلم (٧٦٢) في صلاة المسافرين ، وأبو داود (١٣٧٨) في الصلاة ، والترمذي (٧٩٣) في الصوم .

(٢) متفق عليه : البخاري (٢٠١٥) في التراويح ، ومسلم (١١٦٥) في الصيام .

(٣) صحيح : مسلم (١١٦٨) في الصيام .

(٤) صحيح : مسلم (٢١٣ / ١١٦٧) في الصيام .

(٥) صحيح : مسلم (١١٦٥) في الصيام .

وقال أبي بن كعب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليلة القدر ليلة سبع وعشرين»<sup>(١)</sup>، وقال أبو بكر الوراق: إن الله تعالى قسم ليالي هذا الشهر - شهر رمضان - على كلمات هذه السورة، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال: هي وأيضاً فإن ليلة القدر كرر ذكرها ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، فتجيء سبعا وعشرين، وقيل: هي ليلة تسع وعشرين؛ لما روي أن النبي ﷺ قال: «ليلة القدر التاسعة والعشرون - أو السابعة والعشرون وأن الملائكة في تلك الليلة بعدد الحصى»<sup>(٢)</sup>، وقد قيل: إنها في الأشفاع، قال الحسن: ارتقت الشمس ليلة أربع وعشرين وعشرين سنة، فرأيتها تطلع بيضاء لا شعاع لها، يعني من كثرة الأنوار في تلك الليلة، وقيل: إنها مستورة في جميع السنة، ليجتهد المرء في إحياء جميع الليالي، وقيل: أخفاها في جميع شهر رمضان، ليجتهدوا في العمل والعبادة ليالي شهر رمضان، طمعاً في إدراكها، كما أخفى الصلاة الوسطى في الصلوات، واسمه الأعظم في أسمائه الحسنى، وساعة الإجابة في ساعات الجمعة وساعات الليل، وغضبه في المعاصي، ورضاه في الطاعات، وقيام الساعة في الأوقات، والعبء الصالح بين العباد؛ رحمة منه وحكمة.

الثانية: في علاماتها: منها أن الشمس تطلع في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها، وقال الحسن قال النبي ﷺ في ليلة القدر: «إن من أماراتها: أنها ليلة سمحة بلجة، لا حارة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع»<sup>(٣)</sup>، وقال عبيد بن عمير: كنت ليلة السابع والعشرين في البحر، فأخذت من مائه، فوجدته عذباً سلساً.

الثالثة: في فضائلها: وحسبك بقوله تعالى: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» وقوله تعالى: «تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا»، وفي الصحيحين: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه»<sup>(٤)</sup> رواه أبو هريرة، وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «إذا كان ليلة القدر، تنزل الملائكة الذين هم سكان سدرة المنتهى، منهم جبريل، ومعهم ألوية ينصب منها لواء على قبوري، ولواء على بيت المقدس، ولواء على المسجد الحرام، ولواء على طور سيناء، ولا تدع فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلا تسلم عليه، إلا مدمن الخمر، وأكل الخنزير، والمتصمخ بالزعفران»<sup>(٥)</sup>، وفي الحديث: «إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضيء فجرها، ولا يستطيع أن يصيب فيها أحداً بخبل ولا شيء من الفساد، ولا ينفذ فيها سحر ساحر»<sup>(٦)</sup>، وقال الشعبي: وليها كيومها، ويومها كليها، وقال الفراء: لا يقدر الله في ليلة القدر إلا السعادة والنعم، ويقدر في غيرها البلايا والنقم؛ وقد تقدم عن الضحاك، ومثله لا يقال من جهة الرأي، فهو مرفوع، والله أعلم، وقال سعيد بن المسيب في

(١) صحيح: مسلم (٧٦٢) في الصيام .

(٢) حسن: الهيثمي (٣/ ١٧٦) في المجمع وعزاه لأحمد ورجاله رجال الصحيح ، والطبراني ورجاله ثقات ، عن

أبي هريرة - رضي الله عنه ، وحسنه الألباني (٥٤٧٣) في صحيح الجامع .

(٣) حسن: ابن أبي شيبة (٢/ ٢٥١) ، وانظر صحيح الجامع (٥٤٧٢) .

(٤) متفق عليه: البخاري (١٩٠١) في الصوم ، ومسلم (٧٥٩) ، ٧٦٠ / ١٧٣ - ١٧٦) في صلاة المسافرين .

(٥) ضعيف جداً: ذكره ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٣٦) في تفسيره من كلام كعب الأجار .

(٦) ضعيف: ذكره الأوسمي (٩/ ٤٢٥) في روح المعاني .

«الموطأ»: من شهد العشاء من ليلة القدر، فقد أخذ بحظه منها (١)، ومثله لا يدرك بالرأي، وقد روى عبيدالله بن عامر بن ربيعة: أن رسول الله ﷺ قال: « من صلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر في جماعة، فقد أخذ بحظه من ليلة القدر » (٢) ذكره الثعلبي في تفسيره، وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فما أقول؟ قال: « قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » (٣).

- 
- (١) صحيح مرسل: رواه مالك بلاغًا عن سعيد بن المسيب حديث (١٦) في كتاب الاعتكاف - بتحقيقي - وقد رواه ابن أبي شيبة (٢/ ٣٩٨) في المصنف بسند صحيح مرسل .
- (٢) ضعيف: نحوه ذكره السيوطي في الجامع الكبير (٤/ ١٣٤٢)، والهندي في كنز العمال (٢٤٠٩١).
- (٣) صحيح: الترمذي (٣٥١٣) في التفسير، وابن ماجه (٣٨٥٠) في الدعاء، وأحمد (١/ ٤١٩)، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى .

## سورة البينة

وقد جاء في فضلها حديث لا يصح، رويناه عن محمد بن عبد الله الحضرمي قال: قال لي أبو عبد الرحمن بن نعيم: اذهب إلى أبي الهيثم الخشاب، فاكتب عنه فإنه قد كتب، فذهبت إليه، فقال: حدثنا مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس ما في ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لعطلوا الأهل والمال، فتعلموها» فقال رجل من خزاعة: وما فيها من الأجر يا رسول الله؟ قال: «لا يقرؤها منافق أبداً، ولا عبد في قلبه شك في الله، والله إن الملائكة المقربين يقرؤونها منذ خلق الله السموات والأرض ما يفترون من قراءتها، وما من عبد يقرؤها إلا بعث الله إليه ملائكة يحفظونه في دينه ودينياه، ويدعون له بالمغفرة والرحمة»، قال الحضرمي: فجئت إلى أبي عبد الرحمن بن نعيم، فألقيت هذا الحديث عليه، فقال: هذا قد كفانا مؤونته، فلا تعد إليه (١)، قال ابن العربي: روى إسحاق بن بشر الكاهلي عن مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ: «لو يعلم الناس ما في ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لعطلوا الأهل والمال ولتعلموها»، حديث باطل (٢)؛ وإنما الحديث الصحيح ما روي عن أنس: أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾» قال: وسماني لك؟ قال: «نعم» فبكى.

قلت: خرجه البخاري ومسلم (٣)، وفيه من الفقه قراءة العالم على المتعلم، قال بعضهم: إنما قرأ النبي ﷺ على أبي، ليعلم الناس التواضع؛ لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة، وقيل: لأن أياً كان أسرع أخذاً لألفاظ رسول الله ﷺ؛ فأراد بقراءته عليه، أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع منه، ويعلم غيره، وفيه فضيلة عظيمة لأبي؛ إذ أمر الله رسوله أن يقرأ عليه، قال أبو بكر الأنباري: وحدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد؛ قال حدثنا علي بن الجعد، قال حدثنا عكرمة عن عاصم عن زر بن حبیش قال: في قراءة أبي بن كعب: ابن آدم لو أعطي وادياً من مال لالتمس ثانياً ولو أعطي واديين من مال لالتمس ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، قال عكرمة، قرأ علي عاصم ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ ثلاثين آية، هذا فيها (٤)، قال أبو بكر: هذا باطل عند أهل العلم، لأن قراءتي ابن كثير وأبي عمرو متصلتان بأبي بن كعب، لا يقرأ فيها هذا المذكور في ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ مما هو معروف في حديث رسول الله ﷺ، على أنه من كلام الرسول عليه السلام، لا يحكيه عن رب العالمين

(١) موضوع: الذهبي (٤/ ٣٢٢) في ميزان الاعتدال، وعلته: الهيثم بن خالد الخشاب.

(٢) موضوع: وفيه إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب - كما سبق، وانظر: ابن عمراق (١/ ٢٩٥) في تنزيه الشريعة، وانظر أحكام القرآن (٤/ ١٩٦٩) لابن العربي المالكي.

(٣) متفق عليه: البخاري (٤٩٥٩) في التفسير، ومسلم (٧٩٩) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) وضعه ابن العربي (٤/ ١٩٦٩) في أحكام القرآن، وصححه الألباني (٣٧٩٣) في سنن الترمذي - كتاب التفسير،

قلت: وهي قراءة تفسيرية.

في القرآن، وما رواه اثنان معهما الإجماع: أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ رَسُولٌ  
مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كذا قراءة العامة، وخط المصحف، وقرأ ابن مسعود ﴿لم يكن المشركون وأهل الكتاب منفيين﴾ وهذه قراءة على التفسير، قال ابن العربي وهي جائزة في معرض البيان لا في معرض التلاوة؛ فقد قرأ النبي ﷺ في رواية الصحيح: ﴿فطلقوهن لقبل عدتهن﴾<sup>(١)</sup> وهو تفسير؛ فإن التلاوة: هو ما كان في خط المصحف.

قوله تعالى: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ في موضع جر عطفًا على ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، قال ابن عباس ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود الذين كانوا يثرب، وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع، والمشركون: الذين كانوا بمكة وحولها، والمدينة والذين حولها؛ وهم مشركو قريش<sup>(٢)</sup>، ﴿مُنْفِكِينَ﴾ أي: منتهين عن كفرهم، زائلين عنه، ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: أتتهم ﴿الْبَيِّنَةُ﴾؛ أي: محمد ﷺ، وقيل: الانتهاء بلوغ الغاية أي: لم يكونوا ليلغوا نهاية أعمارهم فموتوا، حتى تأتيهم البينة، فالانفكاك على هذا بمعنى الانتهاء، وقيل: ﴿مُنْفِكِينَ﴾ زائلين؛ أي: لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول، والعرب تقول: ما انفكتك أفعل كذا: أي: ما زلت، وما انفك فلان قائمًا، أي: ما زال قائمًا، وأصل الفك: الفتح؛ ومنه فك الكتاب، وفك الخلخال، وفك السالم، قال طرفة:  
فَأَلَيْتَ لَا يَنْفَكُ كَشْحِي بِطَانَةً لِعَضْبِ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهْنِدِ

وقال ذو الرمة:

حَرَاجِيجُ مَا تَنْفَكُ إِلَّا مَنَاخَةٌ عَلَى الْخَسْفِ أَوْ نَرْمِي بِهَا بِلْدًا قَفْرًا

يريد: بما تنفك مناخة؛ فزاد «إلا»، وقيل: ﴿مُنْفِكِينَ﴾: بارحين؛ أي: لم يكونوا ليرحوا ويفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة، وقال ابن كيسان: أي: لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد ﷺ في كتابهم، حتى بعث؛ فلما بعث حسدوه وجحدوه، وهو كقوله: ﴿قَلَمًا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، ولهذا قال ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [البينة: ٤] الآية، وعلى هذا ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ما كانوا يسيؤون القول في محمد ﷺ، حتى بعث؛ فإنهم كانوا يسمونه الأمين، حتى أتتهم البينة على لسانه، وبعث إليهم، فحينئذ عادوه، وقال بعض اللغويين: ﴿مُنْفِكِينَ﴾ هالكين من قولهم: انفك صلا المرأة عند الولادة؛ وهو أن ينفصل، فلا يلتصق فتتهلك، المعنى: لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وقال قوم في المشركين: إنهم من

(١) قصد أنها قراءة تفسيرية لا أكثر، وانظر أحكام القرآن (٤/ ١٩٦٩) لابن العربي المالكي.

(٢) ذكره البغوي (٨/ ٤٩٣) في تفسيره دون إسناده إلى ابن عباس - رضي الله عنه.

أهل الكتاب؛ فمن اليهود من قال: عزيز ابن الله، ومن النصارى من قال: عيسى هو الله، ومنهم من قال: هو ابنه، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة، وقيل: أهل الكتاب كانوا مؤمنين، ثم كفروا بعد أنبيائهم، والمشركون ولدوا على الفطرة، فكفروا حين بلغوا، فهذا قال: ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾، وقيل: المشركون وصف أهل الكتاب أيضا، لأنهم لم يتفجعوا بكتابتهم، وتركوا التوحيد، فالنصارى مثلثة، وعامة اليهود مشبهة؛ والكل شرك، وهو كقولك: جاءني العقلاء والظرفاء؛ وأنت تريد أقواما بأعيانهم، تصفهم بالأمرين، فالمعنى: من أهل الكتاب المشركين، وقيل: إن الكفر هنا هو الكفر بالنبي ﷺ؛ أي: لم يكن الذين كفروا بمحمد من اليهود والنصارى، الذين هم أهل الكتاب، ولم يكن المشركون، الذين هم عبدة الأوثان من العرب وغيرهم - وهم الذين ليس لهم كتاب - منفيين، قال القشيري: وفيه بعد؛ لأن الظاهر من قوله: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ ﴿﴾ أن هذا الرسول هو محمد ﷺ، فيبعد أن يقال: لم يكن الذين كفروا بمحمد ﷺ منفيين حتى يأتيهم محمد؛ إلا أن يقال: أراد: لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد - وقد كانوا من قبل معظمين له، بمتبهين عن هذا الكفر، إلى أن يبعث الله محمدا إليهم ويبين لهم الآيات؛ فحينئذ يؤمن قوم، وقرأ الأعمش وإبراهيم «والمشركون» رفعا، عطفًا على «الذين»، والقراءة الأولى أئين؛ لأن الرفع يصير فيه الصنفان كأنهم من غير أهل الكتاب، وفي حرف أبي: «فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفيين»، وفي مصحف ابن مسعود: «لم يكن المشركون وأهل الكتاب منفيين»، وقد تقدم، ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ قيل حتى أتتهم، والبينة: محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بعث من الله جل ثناؤه، قال الزجاج: ﴿رَسُولٌ﴾ رفع على البدل من ﴿الْبَيِّنَةُ﴾، وقال الفراء: أي: هي رسول من الله، أو هو رسول من الله؛ لأن البينة قد تذكر فيقال: بيتي فلان، وفي حرف أبي وابن مسعود «رَسُولًا» بالنصب على القطع، ﴿يَتْلُو﴾ أي: يقرأ، يقال: تلا يتلو تلاوة، ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب، ﴿مُطَهَّرَةً﴾ قال ابن عباس: من الزور، والشك، والنفاق، والضلالة، وقال قتادة: من الباطل، وقيل: من الكذب، والشبهات، والكفر؛ والمعنى واحد، أي: يقرأ ما تضمنه الصحف من المكتوب؛ ويدل عليه أنه كان يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب؛ لأنه كان أميا، لا يكتب ولا يقرأ، و﴿مُطَهَّرَةً﴾: من نعت الصحف؛ وهو كقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ (٢) مَرْفُوعَةٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴿﴾ [عيس: ١٣]، فالمطهرة نعت للصحف في الظاهر، وهي نعت لما في الصحف من القرآن، وقيل: ﴿مُطَهَّرَةً﴾ أي: ينبغي ألا يمسخها إلا المطهرون؛ كما قال في سورة «الواقعة» حسب ما تقدم بيانه، وقيل: الصحف المطهرة: هي التي عند الله في أم الكتاب، الذي منه نسخ ما أنزل على الأنبياء من الكتب؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ (٣) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿﴾ [البروج: ٢٢]، قال الحسن: يعني الصحف المطهرة في السماء، ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أي: مستقيمة مستوية محكمة؛ من قول العرب: قام يقوم: إذا استوى وضح، وقال بعض أهل العلم: الصحف هي الكتب؛ فكيف قال في صحف فيها كتب؟ فالجواب: أن الكتب هنا بمعنى الأحكام؛ قال الله عز وجل: ﴿كُتِبَ اللَّهُ لِلْأَعْلَانِ﴾ [المجادلة: ٢١] بمعنى حكم، وقال ﷺ: «والله لأقضي بينكما بكتاب الله» (١) ثم قضى

بالرجم، وليس ذكر الرجم مسطوراً في الكتاب؛ فالمعنى: لأقضي بينكما بحكم الله تعالى، وقال الشاعر:

وما للولاء بالبلاء فملتم وما ذاك قال الله إذ هو يكتب  
وقيل: الكتب القيمة: هي القرآن؛ فجعله كتباً لأنه يشتمل على أنواع من البيان.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: من اليهود والنصارى، خص أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنهم مظنون بهم علم فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف، ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: أتتهم البينة الواضحة، والمعنى به محمد ﷺ؛ أي: بالقرآن موافقا لما في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته، وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوته، فلما بعث جحدوا نبوته وتفرقوا، فمنهم من كفر: بغيا وحسدا، ومنهم من آمن؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]، وقيل: ﴿الْبَيِّنَةُ﴾: البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل، قال العلماء: من أول السورة إلى قوله: ﴿قِيَمَةَ﴾ [البينة: ٥] حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركون، وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾: حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجج.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي: وما أمر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: ليوحدوه، واللام في ﴿لِيَعْبُدُوا﴾ بمعنى: «أن»؛ كقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] أي: أن بين، و﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨]، و﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، وفي حرف عبد الله «وما أمروا إلا أن يعبدوا الله»، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: العبادة؛ ومنه قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات فإن الإخلاص من عمل القلب وهو أن يراد به وجه الله تعالى لا غيره.

الثانية: قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وكان ابن عباس يقول: حنفاء: على دين إبراهيم عليه السلام، وقيل: الحنيف: من اختن وحج؛ قاله سعيد بن جبيرة، قال أهل اللغة: وأصله أنه تحنف إلى الإسلام؛ أي: مال إليه.

الثالثة: قوله تعالى ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: بحدودها في أوقاتها، ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: يعطوها عند محلها، ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ذلك الدين الذي أمروا به دين القيمة؛ أي: الدين المستقيم، وقال الزجاج: أي: ذلك دين الملة المستقيمة، و﴿الْقِيَمَةَ﴾: نعت لموصوف محذوف، أو يقال: دين الأمة القيمة بالحق؛ أي: القائمة بالحق، وفي حرف عبد الله «وذلك الدين القيمة»، قال الخليل ﴿الْقِيَمَةَ﴾ جمع القيم، والقيم والقائم: واحد، وقال الفراء: أضاف الدين إلى القيمة وهو نعته،

لاختلاف اللفظين، وعنه أيضا: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة، وقيل: الهاء راجعة إلى الملة أو الشريعة، وقال محمد بن الأشعث الطالقاني: ﴿الْقِيمَةُ﴾ ها هنا: الكتب التي جرى ذكرها، والدين مضاف إليها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾: ﴿المُشْرِكِينَ﴾: معطوف على ﴿الَّذِينَ﴾، أو يكون مجرورا معطوفا على ﴿أَهْلٍ﴾، ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾: قرأ نافع وابن ذكوان بالهمز (١) على الأصل في الموضعين؛ من قولهم: برأ الله الخلق، وهو البرأى الخالق، وقال ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، الباقون بغير همز، وشد الياء عوضا منه، قال الفراء: إن أخذت البرية من البرى، وهو التراب، فأصله غير الهمز؛ تقول منه: براه الله يبروه بروا؛ أي: خلقه، قال القشيري: ومن قال: البرية من البرى، وهو التراب، قال: لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة، وقيل: البرية: من برت القلم، أي: قدرته؛ فتدخل فيه الملائكة، ولكنه قول ضعيف؛ لأنه يجب منه تخطئة من همز، وقوله ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: شر الخليفة، فقيل يحتمل أن يكون على التعميم، وقال قوم: أي: هم شر البرية الذين كانوا في عصر النبي ﷺ؛ كما قال تعالى ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] أي: على عالمي زمانكم، ولا يبعد أن يكون في كفار الأمم قبل هذا من هو شر منهم؛ مثل فرعون وعاقر ناقة صالح، وكذا ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾: إما على التعميم، أو خير برية عصرهم، وقد استدل بقراءة الهمز من فضل بني آدم على الملائكة، وقد مضى في سورة «البقرة» القول فيه، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة الذين عنده (٢).

﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿جَزَاءُهُمْ﴾ أي: ثوابهم، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: خالقهم ومبالغهم، ﴿جَنَّاتُ﴾ أي: بساتين، ﴿عَدْنٍ﴾ أي: إقامة، والمفسرون يقولون ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بطنان الجنة، أي: وسطها؛ تقول: عدن بالمكان يعدن أقام، ومعدن الشيء: مركزه ومستقره، قال الأعشى:

وإن يُستضافوا إلى حكمه يُضَافُوا إلى راجحٍ قد عدن

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يطعنون ولا يموتون، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: رضي أعمالهم؛ كذا قال ابن عباس، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: رضوا هم بشواب الله عز وجل، ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الجنة، ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: خاف ربه، فتناهى عن المعاصي.

(١) قراءة متواترة: كما في تقريب النsher (ص ٣٥).

(٢) سبق أنه لا يمكن القطع في هذه المسألة - كما مضى في خلق آدم عليه السلام في سورة «البقرة»، وانظر: تفسير

ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٣٨).

## سورة الزلزلة

قال العلماء: وهذه السورة فضلها كثير، وتحتوي على عظيم، روى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾، عدلت له بنصف القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] عدلت له بثلاث القرآن» (١)، قال: حديث غريب، وفي الباب عن ابن عباس، وروي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ أربع مرات، كان كمن قرأ القرآن كله» (٢)، وروى عبدالله بن عمرو بن العاص قال: لما نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ بكى أبو بكر؛ [فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: أبكتني هذه السورة] فقال النبي ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم، لخلق أمة يخطئون ويذنبون ويغفر لهم، إنه هو الغفور الرحيم» (٣).

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

#### ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ أي: حركت من أصلها، كذا روى عكرمة عن ابن عباس (٤)، وكان يقول: في النسخة الأولى يزلزلها وقاله مجاهد؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرُجَفُ الرَّاجِفَةُ﴾ (٥) تَبَعُهَا الرَّادِفَةُ [النازعات: ٦] ثم تزلزل ثانية، فتخرج موتاها وهي الأثقال، وذكر المصدر للتأكيد، ثم أضيف إلى الأرض؛ كقولك: لأعطينك عطيتك؛ أي: عطيتي لك، وحسن ذلك لموافقة رؤوس الآي بعدها، وقراءة العامة بكسر الزاي من الزلزال، وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر بفتحها، وهو مصدر أيضا، كالوسواس والقلق والجرجار، وقيل: الكسر المصدر، والفتح الاسم.

#### ﴿ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾

قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثقل لها، وإذا كان فوقها، فهو

(١) ضعيف: الترمذي (٢٨٩٣) في فضائل القرآن وضعفه الألباني هنا لكن صحح الألباني الفقرة الأخيرة منه، وانظر: صحيح أبي داود (١٣١٤).

(٢) ضعيف: الترمذي والحاكم، وقد وضعفه الألباني بسبب يمان بن المغيرة (١٣٤٢) في انضعيفة.

(٣) ضعيفة وله شواهد تحسنه: الهيثمي (٧/ ١٤١) في المجمع وعزاه للطبراني وفيه: حكي بن عبد الله المعافري، وثقه ابن معين وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح، والنواحيدي (ص ٣٩٨) في أسباب النزول وله شواهد كما في الصحيحة (٩٦٧ - ٩٧٠) للألباني - رحمه الله.

(٤) حسن: الطبري (٣٠/ ٢٩١) في تفسيره.

ثقل عليها، وقال ابن عباس ومجاهد (١) ﴿أَثْقَالَهَا﴾: موتها، تخرجهم في النفخة الثانية، ومنه قيل للجن والإنس: الثقلان، وقالت الخنساء:

أبعد ابن عمرو من آل الشير يد حلت به الأرض أثقالها

تقول: لما دفن عمرو صار حلية لأهل القبور، من شرفه وسؤدده، وذكر بعض أهل العلم قال: كانت العرب تقول: إذا كان الرجل سفاكا للدماء: كان ثقلا على ظهر الأرض؛ فلما مات حطت الأرض عن ظهرها ثقلها، وقيل: ﴿أَثْقَالَهَا﴾ كنوزها؛ ومنه الحديث: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة...» (٢).

### ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾ أي: ابن آدم الكافر، فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هو الأسود بن عبد الأسد (٣)، وقيل: أراد كل إنسان يشاهد ذلك عند قيام الساعة في النفخة الأولى، من مؤمن وكافر، وهذا قول من جعلها في الدنيا من أشراف الساعة؛ لأنهم لا يعلمون جميعا من أشراف الساعة في ابتداء أمرها، حتى يتحققوا عمومها؛ فلذلك سأل بعضهم بعضها، وعلى قول من قال: إن المراد بالإنسان الكفار خاصة، جعلها زلزلة القيامة؛ لأن المؤمن معترف بها، فهو لا يسأل عنها، والكافر جاحد لها، فلذلك يسأل عنها، ومعنى: ﴿مَا لَهَا﴾ أي: ما لها زلزلت، وقيل: ما لها أخرجت أثقالها، وهي كلمة تعجب؛ أي: لأي شيء زلزلت، ويجوز أن يحيى الله الموتى بعد وقوع النفخة الأولى، ثم تحرك الأرض فتخرج الموتى وقد رأوا الزلزلة وانشقاق الأرض عن الموتى أحياء، فيقولون من الهول: ما لها.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوب بقوله ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾، وقيل: بقوله ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾؛ أي: تخبر الأرض بما عمل عليها من خير أو شر يومئذ، ثم قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: من قول الإنسان؛ أي: يقول الإنسان ما لها تحدث أخبارها؛ متعجبا، وفي الترمذي عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا، كذا وكذا»، قال: «فهذه أخبارها»، قال: هذا حديث حسن صحيح غريب (٤)،

(١) صحيح إبي مجاهد: والإسناد إلى ابن عباس فيه نظر، فقد رواه الطبري (٣٠ / ٢٩١) في تفسيره، من طريق عكرمة، عن ابن عباس بسند فيه نظر، ورواه من طريق العوفيين وهو سند الجهالة، وانظر أثر مجاهد عند ابن أبي حاتم (١٢ / ٤٣٩) في تفسيره.

(٢) صحيح: مسلم (١٠١٣) في الزكاة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه والأسطوان: العمود.

(٣) إسناد منقطع: بين الضحاك وابن عباس - رضي الله عنهما وانظر: الطبري (٣٠ / ٢٩١).

(٤) حسن غريب صحيح: الترمذي (٣٣٥٣) في التفسير، والنسائي (١١٦٩٣) في الكبرى وضعفه الألباني هناك.

قال الماوردي: قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾: فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ بأعمال العباد على ظهرها؛ قاله أبو هريرة، ورواه مرفوعا، وهو قول من زعم أنها زلزلة القيامة.

الثاني: تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها؛ قاله يحيى بن سلام، وهو قول من زعم أنها زلزلة أشراط الساعة.

قلت: وفي هذا المعنى حديث رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إذا كان أجل العبد بأرض أو ثبتت الحاجة إليها، حتى إذا بلغ أقصى أثره قبضه الله، فتقول الأرض يوم القيامة: رب هذا ما استودعتني»، أخرجه ابن ماجه في سننه، وقد تقدم (١).

الثالث: أنها تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لها؟ قاله ابن مسعود، فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرة قد أتى، فيكون ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم، ووعيداً للكافر، وإنذاراً للمؤمن.

وفي حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الله تعالى يقلبها حيواناً ناطقاً؛ فتتكلم بذلك.

الثاني: أن الله تعالى يحدث فيها الكلام.

الثالث: أنه يكون منها بيان يقوم مقام الكلام، قال الطبري: تبين أخبارها بالرجة والزلزلة وإخراج الموتى.

قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: إنها تحدث أخبارها بوحى الله ﴿لَهَا﴾، أي: إليها، والعرب تضع لام الصفة موضع «إلى»، قال العجاج يصف الأرض:

أَوْحَىٰ لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ      وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الشُّبَّتِ

وهذا قول أبي عبيدة: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: إليها، وقيل: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: أمرها؛ قاله مجاهد، وقال السدي: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: وقيل لها، وقال: سخرها، وقيل: المعنى يوم تكون الزلزلة، وإخراج الأرض أثقالها، تحدث الأرض أخبارها؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصي، وما عمل على ظهرها من خير وشر، وروي ذلك عن الثوري وغيره (٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي: فرقا؛ جمع شت، قيل: عن موقف الحساب؛ فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة، وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار؛ كما قال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقيل: يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب، ﴿أَشْتَاتًا﴾ يعني: فرقا فرقا، ﴿لِيُرَوَّا أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني ثواب أعمالهم، وهذا كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من أحد يوم القيامة إلا ويلوم نفسه، فإن كان محسناً فيقول: لم لا ازددت إحساناً؟ وإن

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) كذا رواه الطبري (٣٠/ ٢٩٢) في تفسيره.

كان غير ذلك يقول: لم لا نزعتم عن المعاصي؟» (١) وهذا عند معاينة الثواب والعقاب، وكان ابن عباس يقول: ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين على قدر أعمالهم أهل الإيمان على حدة، وأهل كل دين على حدة، وقيل: هذا الصدور، إنما هو عند النشور؛ يصدرون أشتاتًا من القبور، فيصار بهم إلى موقف الحساب، ليروا أعمالهم في كتبهم، أو ليروا جزاء أعمالهم؛ فكانهم وردوا القبور فدفنوا فيها، ثم صدروا عنها، والوارد: الجائي، والصادر: المنصرف، ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي: يبعثون من أقطار الأرض، وعلى القول الأول فيه تقديم وتأخير، مجازه: تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها، ليروا أعمالهم، واعترض قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدَّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين عن موقف الحساب، وقراءة العامة: ﴿لِيرُوا﴾ بضم الياء؛ أي: ليربهم الله أعمالهم، وقرأ الحسن والزهري وقتادة والأعرج ونصر بن عاصم وطلحة بفتحها (٢)؛ وروي ذلك عن النبي ﷺ.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٢١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ كان ابن عباس يقول: من يعمل من الكفار مثقال ذرة خيراً يره في الدنيا، ولا يثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه في الآخرة، مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا مات، ويتجاوز عنه، وإن عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه، ويضاعف له في الآخرة، وفي بعض الحديث: «الذرة لا زنة لها» (٣) وهذا مثل ضربه الله تعالى: أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وقد تقدم الكلام هناك في الذر، وأنه لا وزن له، وذكر بعض أهل اللغة أن الذر: أن يضرب الرجل بيده على الأرض، فما علق بها من التراب فهو الذر، وكذا قال ابن عباس: إذا وضعت يدك على الأرض ورفعتها، فكل واحد مما لرق به من التراب ذرة، وقال محمد بن كعب القرظي: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر، يرى ثوابه في الدنيا، في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن، يرى عقوبته في الدنيا، في نفسه وماله وولده وأهله، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر (٤)، دليله ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس: أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، وإنا لنرى ما عملنا من خير وشر؟ قال: «ما رأيت مما تكره فهو مثاقيل ذر الشر، ويدخر لكم مثاقيل ذر الخير،

(١) ضعيف جداً: الترمذي بنحوه (٢٤٠٣) في الزهد، وأبو نعيم (١٧٨ / ٨) في الحلية، وضعفه الألباني (٥١٤٦) في ضعيف الجامع بلفظ: «ما من أحد يموت إلا ندم، إن كان محسناً ندم ألا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً قدم ألا يكون نزع».

(٢) كذا في البحر المحيط (٨ / ٥٠١، ٥٠٢) لأبي حيان.

(٣) هذا ليس بالحديث وقد سبق.

(٤) كذا عند الطبري (٣٠ / ٢٩٦) في تفسيره.

حتى تعطوه يوم القيامة» (١) ، قال أبو إدريس: إن مصداقه في كتاب الله: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ» [الشورى: ٣٠] ، وقال مقاتل: نزلت في رجلين، وذلك أنه لما نزل ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْبِهِ﴾ [الإنسان: ٨] كان أحدهم يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، كالكذبة والغيبة والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر؛ فنزلت ترغيبهم في القليل من الخير أن يعطوه؛ فإنه يوشك أن يكثر، وتحذرهم اليسير من الذنب، فإنه يوشك أن يكثر؛ وقاله سعيد بن جبير، والإثم الصغير في عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال، وجميع محاسنه أقل في عينه من كل شيء.

الثانية: قراءة العامة «يُرَهُ» بفتح الياء فيهما، وقرأ الجحدري والسلمي وعيسى بن عمر وأبان عن عاصم «يُرَهُ» بضم الياء؛ أي: يريه الله إياه، والأولى الاختيار؛ لقوله تعالى: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَأْ عَمَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا» [آل عمران: ٣٠] الآية، وسكن الهاء في قوله: «يُرَهُ» في الموضعين هشام، وكذلك رواه الكسائي عن أبي بكر وأبي حيوه والمغيرة (٢) ، واختلس يعقوب والزهري والجحدري وشيبة (٣) ، وأشبح الباقون، وقيل «يُرَهُ» أي: يرى جزاءه؛ لأن ما عمله قد مضى وعدم فلا يرى، وأنشدوا:

إِنَّ مَنْ يَعْتَدِي وَيَكْسِبُ إِثْمًا      وَزَنَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ سَيَرَاهُ  
ويجازى بفعله الشَّرَّ شَرًّا      وبفعل الجميل أيضا جزَاهُ  
هكذا قَوْلُهُ تَبَارَكَ رَبِّي      في إِذَا زُلْزِلَتْ وَجَلَّ نَنَاهُ

الثالثة: قال ابن مسعود: هذه أحكم آية في القرآن؛ وصدق، وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية؛ القائلون بالعموم ومن لم يقل به، وروى كعب الأحبار أنه قال: لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزيور والصحف «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (٤) ، قال الشيخ أبو مدين في قوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ» قال: في الحال قبل المال، وكان النبي ﷺ يسمى هذه الآية الآية الجامعة الفاذة؛ كما في الصحيح لما سئل عن الحمير وسكت عن البغال (٥) ، والجواب فيهما واحد؛ لأن البغل والحمار لا كر فيهما ولا فر؛ فلما ذكر النبي ﷺ ما في الخيل من الأجر الدائم، والثواب المستمر، سأل السائل عن الحمير، لأنهم لم يكن عندهم يومئذ بغل، ولا دخل الحجاز منها إلا بغلة النبي ﷺ «الدُّلْدُلُ» ، التي أهداها له المقوقس، فأفتاه في الحمير بعموم الآية، وإن في الحمار مثاقيل ذر كثيرة؛ قاله ابن العربي (٦) ، وفي «الموطأ»:

(١) ضعيف: ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٤١) في تفسيره والهيثمي (٧/ ١٤١، ١٤٢) في المجمع وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، عن شيخه موسى بن سهل، والظاهر أنه الوشاء وهو: ضعيف» .

(٢، ٣) قراءتان متواترتان: كما في تقريب النشر (ص ١٦) .

(٤) انظر تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٤٢) .

(٥) صحيح: البخاري (٢٨٦٠) في الجهاد، ومسلم (٩٨٧) في الزكاة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٦) أحكام القرآن (٤/ ١٩٧٢) .

أن مسكينا استطعم عائشة أم المؤمنين وبين يديها عنب؛ فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها ويعجب؛ فقال: أتعجب! كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة<sup>(١)</sup>، وروي عن سعد بن أبي وقاص: أنه تصدق بتمرتين، فقبض السائل يده، فقال للسائل: ويقبل الله منا مثاقيل الذر، وفي التمرتين مثاقيل ذر كثيرة، وروى المطلب بن حنطب: أن أعرابيا سمع النبي ﷺ يقرأها فقال: يا رسول الله، أمثقال ذرة! قال: «نعم» فقال الأعرابي: واسواتاه! مرارا ثم قام وهو يقولها؛ فقال النبي ﷺ: «لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان»<sup>(٢)</sup>، وقال الحسن: قدم صعصعة عم الفرزدق على النبي ﷺ، فلما سمع «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ» الآيات؛ قال: لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها، حسبي، فقد انتهت الموعظة؛ ذكره الثعلبي، ولفظ الماوردي: وروى أن صعصعة ابن ناجية جد الفرزدق أتى النبي ﷺ يستقرئه، فقرأ عليه هذه الآية؛ فقال صعصعة: حسبي حسبي؛ إن عملت مثقال ذرة شرا رأيت، وروى معمر عن زيد بن أسلم: أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: علمني مما علمك الله، فدفعه إلى رجل يعلمه؛ فعلمه «إِذَا زُلْزِلَتْ» حتى إذا بلغ: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ»<sup>(٣)</sup> (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» قال: حسبي، فأخبر النبي ﷺ فقال: «دعوه فإنه قد فقه»<sup>(٣)</sup>. ويحكى أن أعرابيا أخرج «خَيْرًا يَرَهُ» فقيل: قدمت وأخرت. فقال:

خذنا بطنَ هَرَشَى أو قفاها فإنه كِلا جانبي هَرَشَى لَهَن طَرِيقَ<sup>(٤)</sup>

(١) ضعيف: مالك (٢/ ٩٩٧) (١٨١٠) بلاغا، عن عائشة - رضي الله عنها .

(٢) صحيح: ذكره السيوطي (٦/ ٦٤٨) في الدر، وعزاه لسعيد بن منصور، وصححه الهيثمي (٧/ ١٤١) في المجمع .

(٣) مرسل: كما عند عبد الرزاق (٣٥٧٤) في تفسيره مرسلأ .

(٤) هَرَشَى بالفتح ثم السكون: ثنية من طريق مكة قريبة إلى الجحفة يرى منها البحر ولها طريقان، وكل من سلك واحداً منهما أفضى به إلى موضع واحد . معجم البلدان (٥/ ٤٥٧) .

## سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أي الأفراس تعدو، كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة؛ أي تعدو في سبيل الله فتضبح، قال قتادة: تضبح إذا عدت (١)؛ أي: تحمحم، وقال الفراء: الضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عدون، ابن عباس: ليس شيء من الدواب يضبح غير الفرس والكلب والتعلب (٢)، وقيل: كانت تُكَعَم (٣) لثلا تصهل، فيعلم العدو بهم؛ فكانت تنفس في هذه الحال بقوة، قال ابن العربي: أقسم الله بمحمد ﷺ فقال: ﴿يَسَّ (١) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ [يس: ١]، وأقسم بحياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها، وقدح حوافرها النار من الحجر، فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾... الآيات الخمس (٤)، وقال أهل اللغة:

وطَعْنَةُ ذَاتِ رَشَاشٍ وَاهِيَةٌ طَعْنَتُهَا عِنْدَ صُدُورِ الْعَادِيَةِ

يعني الخيل، وقال آخر:

وَالْعَادِيَاتُ أُسَابِيُّ الدِّمَاءِ بِهَا كَأَنَّ أَعْنَاقَهَا أَنْصَابُ تَرْجِيْبٍ

يعني الخيل، وقال عنترة:

وَالْخَيْلُ تَعْلُمُ حِينَ تَضُّ سَبْحُ فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ ضَبْحًا

وقال آخر:

لَسْتُ بِالتَّبَعِ الْيَمَانِيِّ إِنْ لَمْ تَضَّحِ الْخَيْلُ فِي سَوَادِ الْعِرَاقِ

وقال أهل اللغة: وأصل الضبح والضباح للشعاب؛ فاستعير للخيل، وهو من قول العرب:

ضَبِحْتَهُ النَّارَ: إِذَا غَيَّرْتَ لَوْنَهُ وَلَمْ تَبَالِغْ فِيهِ، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

فَلَمَّا أَنْ تَلَهُوْجُنَا سُوءًا بِهِ اللَّهْبَانُ مَقْهُورًا ضَبَّيْحًا

وانضح لونه: إذا تغير إلى السواد قليلا، وقال:

عَلَّقْتُهَا قَبْلَ انْضِبَاحِ لُونِي

وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من فرح وحب أو طمع، ونصب ﴿ضَبْحًا﴾ على

(١) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠/ ٢٩٩) في تفسيره.

(٢) صحيح: وهو عن عطاء الخراساني كما عند الطبري (٣٠/ ٢٩٨) في تفسيره، ونقله البغوي (٨/ ٥٠٥) في تفسيره، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وابن كثير (٩/ ٣٦٥) في تفسيره.

(٣) الكعاب: ما يوضع على فم البعير. اللسان «كعم».

(٤) هذا إن صح أن اسمه (يس) ولم يصح: أحكام القرآن (٤/ ١٩٧٤) للقاضي ابن العربي المالكي.

المصدر؛ أي: والعاديات تضح ضبحاً، والضح أيضاً الرماد، وقال البصريون: ﴿ضَبْحًا﴾ نصب على الحال، وقيل: مصدر في موضع الحال، قال أبو عبيدة: ضبحت الخيل ضبحاً مثل ضبعت؛ وهو السير، وقال أبو عبيدة: الضح والضبع: بمعنى العدو والسير.

وكذا قال المبرد: الضح مد أضباعها في السير، وروي أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى أناس من بني كنانة، فأبطأ عليه خبرها، وكان استعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، وكان أحد النقباء؛ فقال المنافقون: إنهم قتلوا؛ فنزلت هذه السورة إخباراً للنبي ﷺ بسلامتها، وبشارة له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم (١).

ومن قال: إن المراد بالعاديات الخيل، ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد (٢)، والمراد: الخيل التي يغزو عليها المؤمنون.

وفي الخبر: «من لم يعرف حرمة فرس الغازي، ففيه شعبة من النفاق» (٣)، وقول ثان: إنها الإبل؛ قال أبو صالح: نازعت فيها عكرمة فقال عكرمة: قال ابن عباس هي الخيل، وقلت: قال علي هي الإبل في الحج، ومولاي أعلم من مولاك (٤)، وقال الشعبي: تمارى علي وابن عباس في ﴿الْعَادِيَاتِ﴾، فقال علي: هي الإبل تعدو في الحج، وقال ابن عباس: هي الخيل؛ ألا تراه يقول ﴿فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا﴾ [العاديات: ٤] فهل تثير إلا بحوافرها! وهل تضح الإبل! فقال علي: ليس كما قلت، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للمقداد، وفرس لمرثد بن أبي مرثد؛ ثم قال له علي: أنفتي الناس بما لا تعلم! والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام وما معنا إلا فرسان: فرس للمقداد، وفرس للزبير؛ فكيف تكون العاديات ضبحاً! إنما العاديات الإبل من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى، قال ابن عباس: فرجعت إلى قول علي (٥)، وبه قال ابن مسعود وعبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدي (٦)، ومنه قول صفية بنت عبدالمطلب:

فَلَا وَالْعَادِيَاتِ غَدَاةَ جَمْعٍ بِأَيْدِيهَا إِذَا سَطَعَ الْغُبَارُ

يعني: الإبل، وسميت العاديات لاشتقاقها من العدو، وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي. وقال آخر:

رَأَى صَاحِبِي فِي الْعَادِيَاتِ نَجِيئَةً وَأَمْثَالَهَا فِي الْوَاضِعَاتِ الْقَوَامِسِ

ومن قال هي الإبل فقولته ﴿ضَبْحًا﴾ بمعنى ضبعاً؛ فالحاء عنده مبدلة من العين؛ لأنه يقال:

(١) ضعيف: الواحدى (ص ٣٩٩) في أسباب النزول، والهشمي في المجمع (٧/ ١٤٢) وعزاه للطبراني وفيه حفص ابن الربيع وهو ضعيف، ورواه الواحدى (ص ٣٩٩)، عن مقاتل معضلاً.

(٢) هو صحيح إلى ابن عباس: انظر الطبري (٣٠٠/ ٢٩٩) في تفسيره.

(٣) منكر: ذكره، المتقى الهندي (١٠٦٦٣) في الكنز وعزاه للرافعي، عن أنس، وقال: «منكر».

(٤) انظر التالي، ورواه السيوطي (٦/ ٥٦١، ٥٦٢) في الدر المنثور وعزاه لعبد بن حميد.

(٥) حسن: وقد رواه الطبري (٣٠٠/ ٢٩٩)، في تفسيره من طريق سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، وابن أبي

حاتم (١٢/ ٤٤٣) في تفسيره، والبغوي (٨/ ٥٠٦) في تفسيره.

ورواه الحاکم (٢/ ١١٥) وضححه، ومال ابن حجر (٨/ ٧٢٧) في الفتح لتحسينه.

(٦) الطبري (٣٠٠/ ٢٩٩)، في تفسيره.

ضبعت الإبل وهو أن تمد أعناقها في السير، وقال المبرد: الضبع مد أضباعها في السير، والضبع أكثرها ما يستعمل في الخيل، والضبع في الإبل، وقد تبدل الحاء من العين، أبو صالح: الضبع من الخيل: الحمحمة، ومن الإبل التنفس، وقال عطاء: ليس شيء من الدواب يضح إلا الفرس والثعلب والكلب؛ وروي عن ابن عباس<sup>(١)</sup>، وقد تقدم عن أهل اللغة أن العرب تقول: ضبح الثعلب؛ وضبح في غير ذلك أيضا، قال توبة:

ولو أن ليلي الأخيبة سلّمت عليّ ودوني تُربة وصفائحُ  
سلمتُ تسليمَ البشاشة أو زقا إليها صدّي من جانب القبر ضابِحُ

زقا الصدى يزقو زقاء: أي: صاح، وكل زاق صائح، والزقية: الصيحة.

قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ قال عكرمة وعطاء والضحاك: هي الخيل حين توري النار بحوافرها، وهي سنابكها<sup>(٢)</sup>؛ وروي عن ابن عباس، وعنه أيضا: أورت بحوافرها غبارا، وهذا يخالف سائر ما روي عنه في قدح النار؛ وإنما هذا في الإبل، وروي ابن نجيم عن مجاهد: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ (٣) فالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ قال ابن عباس: هو في القتال وهو في الحج، ابن مسعود: هي الإبل تطأ الحصى، فتخرج منها النار<sup>(٣)</sup>، وأصل القدح الاستخراج؛ ومنه قدحت العين: إذا أخرجت منها الماء الفاسد، واقتدحت الزند، واقتدحت المرق: غرفته، وركى قدوح: تغترف باليد، والقديح: ما يبقى في أسفل القدر، فيغرف بجهد، والمقدحة: ما تقدح به النار، والقداحة والقداح: الحجر الذي يوري النار، يقال: وري الزند بالفتح يري وريا: إذا خرجت ناره، وفيه لغة أخرى: وري الزند بالكسر يري فيهما، وقد مضى هذا في سورة الواقعة، و﴿قَدْحًا﴾ انتصب بما انتصب به ﴿ضَبْحًا﴾، وقيل: هذه الآيات في الخيل؛ ولكن إبراءها: أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوهم، ومنه يقال للحرب إذا التحمت: حمي الوطيس، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلِمًا أَوْ قَدْوًا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] وروي معناه عن ابن عباس أيضا<sup>(٤)</sup>، وقاله قتادة<sup>(٥)</sup>، وعن ابن عباس<sup>(٦)</sup> أيضا: أن المراد بالموريات قدحا: مكر الرجال في الحرب؛ وقاله مجاهد وزيد بن أسلم، والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يكر بصاحبه: والله لا مكرن بك، ثم لأورين لك، وعن ابن عباس<sup>(٧)</sup> أيضا: هم الذين يغزون فيورون نيرانهم بالليل، لحاجتهم وطعامهم، وعنه أيضا: أنها نيران المجاهدين إذا كثرت نارا إرهابا، وكل من قرب من العدو يوقد نيرانا كثيرة ليظنهم العدو كثيرا، فهذا إقسام بذلك، قال محمد بن كعب: هي النار تجمع<sup>(٨)</sup>، وقيل: هي أفكار الرجال توري نار المكر والخديعة، وقال عكرمة: هي ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما تتكلم به، ويظهر بها من الحجج، وإقامة الدلائل، وإيضاح الحق، وإبطال الباطل، وروي ابن جريج عن بعضهم قال: فالمنجحات أمرا وعملا، كنجاح الزند إذا أوري.

(١) سبق عند الطبري قريبا .

(٢) كذا عند الطبري (٣٠ / ٣٠٠ ، ٣٠١) ، وفي سند الطبري إلى ابن عباس: ابن جريج ، عن عطاء وهو مدلس .

(٣) في إسناده ضعف من طريق الطبري : التفسير (٦ / ٣٠٢) .

(٤ - ٨) انظر تفسير ابن كثير (٨ / ٣٦٥) ، والسيوطي في الدر المنثور (٦ / ٦٥٣ ، ٦٥٤) ، والطبري (٣٠ / ٣٠٣) ،

(٣٠٤) في تفسيره .

قلت: هذه الأقوال مجاز؛ ومنه قولهم: فلان يوري زناد الضلالة، والأول: الحقيقة، وأن الخيل من شدة عدوها تقدح النار بحوافرها، قال مقاتل: العرب تسمي تلك النار نار أبي حباحب، وكان أبو حباحب شيخا من مضر في الجاهلية، من أبخل الناس، وكان لا يوقد نار الخبز ولا غيره حتى تنام العيون، فيوقد نوبيرة تقدر مرة وتخمد أخرى؛ فإن استيقظ لها أحد أطفالها، كراهية أن ينتفع بها أحد، فشبته العرب هذه النار بناره؛ لأنه لا ينتفع بها، وكذلك إذا وقع السيف على البيضة فاقترحت ناراً، فكذلك يسمونها، قال النابغة:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهُم      بهن فُلُولٌ من قِراعِ الكَتَّابِ  
تَقْدُّ السُّلُوقِي المِضَاعِفَ نِجْه      وتوقد بالصُّفاحِ نارَ الحُبَّاحِبِ

### ﴿قَالَ مُعِيرَاتِ صُبْحًا﴾

الخيل تغير على العدو عند الصبح؛ عن ابن عباس وأكثر المفسرين، وكانوا إذا أرادوا الغارة سرا ليلًا، ويأتون العدو صباحًا؛ لأن ذلك وقت غفلة الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذِرِينَ﴾ [الصفات: ١٧٧] وقيل: لعزهم أغاروا نهارًا، و﴿صُبْحًا﴾ على هذا، أي: علانية، تشبيها بظهور الصبح، وقال ابن مسعود وعلي رضي الله عنهما: هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى، والسنة ألا تدفع حتى تصبح؛ وقاله القرظي، والإغارة: سرعة السير؛ ومنه قولهم:

أشرق ثبير، كيما نغير

### ﴿فَأَثَرَنَ بِهِ نَقْعًا﴾

أي: غبارا؛ يعني الخيل تثير الغبار بشدة العدو في المكان الذي أغارت به، قال عبدالله بن رواحة:

عدمتُ بِنيتي إن لم تروها      تُثيرُ النَّقْعَ من كَنفي كداء

والكناية في ﴿به﴾ ترجع إلى المكان، أو إلى الموضع الذي تقع فيه الإغارة، وإذا علم المعنى جازئ أن يكنى عما لم يجز له ذكر بالتصريح؛ كما قال: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، وقيل: ﴿فَأَثَرَنَ بِهِ﴾، أي: بالعدو ﴿نَقْعًا﴾، وقد تقدم ذكر العدو، وقيل: النقع: ما بين مزدلفة إلى منى؛ قاله محمد بن كعب القرظي، وقيل: إنه طريق الوادي؛ ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع، وفي الصحاح: النقع: الغبار، والجمع: نقاع، والنقع: محبس الماء، وكذلك ما اجتمع في البئر منه، وفي الحديث: أنه نهى أن يمنع نقع البئر<sup>(١)</sup>، والنقع: الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء؛ والجمع: نقاع وأنقع؛ مثل بحر وبحار وأبحر.

قلت: وقد يكون النقع رفع الصوت، ومنه حديث عمر حين قيل له: إن النساء قد اجتمعن يبيكين على خالد بن الوليد؛ فقال: وما على نساء بني المغيرة أن يسفكن من دموعهن وهن جلوس على أبي سليمان، ما لم يكن نقع، ولا لقلقة<sup>(٢)</sup>، قال أبو عبيد: يعني بالنقع رفع الصوت؛ على

(١) صحيح شواهده: كذا قال الألباني (٢٤٧٩) في سنن ابن ماجه كتاب الأحكام (ص ٤٢٣) ط - الرياض .

(٢) علقه البخاري باب (٣٣) في الجنائز (٣/ ١٦٠) فتح ووصله البخاري في التاريخ الأوسط من طريق الأعمش عن

شقيق به ، كما في الفتح (٣/ ١٦١) .

هذا رأيت قول الاكثريين من أهل العلم؛ ومنه قول لبيد:

فمتى ينقع صرأخُ صادقٍ يحلبوها ذاتَ جرسٍ وزجَلٍ

ويروى «يحبوبها» أيضا، يقول: متى سمعوا صراخًا أحلبوا الحرب، أي: جمعوا لها، وقوله «ينقع صراخ»: يعني رفع الصوت، وقال الكسائي: قوله «نقع ولا لقلقة» النقع: صنعه الطعام؛ يعني في المأتم، يقال منه: نقعت أنقع نقعا، قال أبو عبيد: ذهب بالنقع إلى النقيعة؛ وإنما النقيعة عند غيره من العلماء: صنعة الطعام عند القدوم من سفر، لا في المأتم، وقال بعضهم: يريد عمر بالنقع: وضع التراب على الرأس؛ يذهب إلى أن النقع هو الغبار، ولا أحسب عمر ذهب إلى هذا، ولا خافه منهن، وكيف يبلغ خوفه ذا وهو يكره لهن القيام، فقال: يسفكن من دموعهن وهن جلوس، قال بعضهم: النقع: شق الجيوب؛ وهو الذي لا أدري ما هو من الحديث ولا أعرفه، وليس النقع عندي في هذا الحديث إلا الصوت الشديد، وأما اللقلقة: فشدّة الصوت، ولم أسمع فيه اختلافا، وقرأ أبو حيرة «فأثرن» بالتشديد؛ أي: أرت آثار ذلك، ومن خفف فهو من أثار: إذا حرك؛ ومنه «وَأَثَارُوا الْأَرْضَ» [الروم: ٩].

### ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾

قوله تعالى: ﴿جَمَعًا﴾ مفعول بـ ﴿وَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾؛ أي: فوسطن بركبانهن العدو؛ أي: الجمع الذي أغاروا عليهم، وقال ابن مسعود: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾: يعني: مزدلفة (١)؛ وسميت جمعا لاجتماع الناس بها، ويقال: وسطت القوم أسطهم وسطا وسطة؛ أي: صرت وسطهم. وقرأ علي رضي الله عنه: «فَوَسَطْنَ» بالتشديد، وهي قراءة قتادة وابن مسعود وأبي رعاء؛ لغتان بمعنى، يقال: وسطت القوم بالتشديد والتخفيف وتوسطهم: بمعنى واحد، وقيل: معنى التشديد: جعلها أجمع قسمين، والتخفيف: صرن في وسط الجمع؛ وهما يرجعان إلى معنى الجمع (٢).

### ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾

هذا جواب القسم؛ أي: طبع الإنسان على كفران النعمة، قال ابن عباس: ﴿لَكَنُودٌ﴾ لكفور جحود لنعم الله، وكذلك قال الحسن، وقال: يذكر المصائب وينسى النعم (٣)، أخذه الشاعر فنظمه:

يا أيها الظالم في فعله      والظلمُ مردودٌ على من ظلمَ  
إلى متى أنت وحتّى متى      تشكو المصائب وتنسى النعم

وروى أبو أمامة الباهلي، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكنود هو الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده» (٤)، وروى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبأكم بشراركم؟»

(١) حسن: الطبري (٣٠٠ / ٣٠٥) في تفسيره.

(٢) كذا في تفسير ابن أبي حاتم (١٢ / ٤٤٤) بنحوه.

(٣) حسن: الطبري (٣٠٠ / ٣٠٦) في تفسيره.

(٤) ضعيف جدا: الطبراني في الكبير (٨ / ١٨٨)، والطبري (٣٠٠ / ٣٠٦) في تفسيره وفي سندهما جعفر بن الزبير: متروك، وضعفه الألباني (٤٣٠٤) في ضعيف الجامع، والرغد: العطاء. اللسان «رفد».

قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «من نزل وحده، ومنع رفده، وجلد عبده»<sup>(١)</sup>، خرجهما الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول»، وقد روي عن عباس أيضا أنه قال: الكنود بلسان كندة وحضرموت: العاصي، وبلسان ربيعة ومضر: الكفور، وبلسان كنانة: البخيل السيئ الملكة؛ وقاله مقاتل، وقال الشاعر:

كَنُودٌ لِنِعْمَاءِ الرَّجَالِ وَمَنْ يَكُنْ كَنُودًا لِنِعْمَاءِ الرَّجَالِ يُعِدُّ

أي: كفور، ثم قيل: هو الذي يكفر اليسير، ولا يشكر الكثير، وقيل: الجاحد للحق، وقيل: إنما سميت كندة كندة، لأنها جحدت أباه، وقال إبراهيم بن هرمة الشاعر:

دَعِ الْبُخْلَاءَ إِنْ شَمَخُوا وَصَدُوا وَذَكَرِي بُخْلٍ غَانِيَةٌ كَنُودٌ

وقيل: الكنود: من كند إذا قطع؛ كأنه يقطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر، ويقال: كند الحبل: إذا قطعه، قال الأعشى:

أَمِيطِي تُمِيطِي بِصَلْبِ الْفُؤَادِ وَصُولِ حِبَالِ وَكَنَادَهَا

فهذا يدل على القطع، ويقال: كند يكند كنودا: أي: كفر النعمة وجحدتها، فهو كنود، وامرأة كنود أيضا، وكند مثله، قال الأعشى:

أَحَدَتْ لَهَا تُحَدِّثُ لَوْصَلَكِ إِنَّهَا كُنْدٌ لَوْصَلِ الزَّائِرِ الْمُعْتَادِ

أي: كفور للمواصلة، وقال ابن عباس: الإنسان هنا الكافر؛ يقول إنه لكفور<sup>(٢)</sup>؛ ومنه الأرض الكنود التي لا تنبت شيئا، وقال الضحاك: نزلت في الوليد بن المغيرة، قال المبرد: الكنود: المانع لما عليه، وأشد لكثير:

أَحَدَتْ لَهَا تُحَدِّثُ لَوْصَلَكِ إِنَّهَا كُنْدٌ لَوْصَلِ الزَّائِرِ الْمُعْتَادِ

وقال أبو بكر الواسطي: الكنود: الذي ينفق نعم الله في معاصي الله، وقال أبو بكر الوراق: الكنود: الذي يرى النعمة من نفسه وأعوانه، وقال الترمذي: الذي يرى النعمة ولا يرى المنعم، وقال ذو النون المصري: الهلوع والكنود: هو الذي إذا مسه الشر جزوع وإذا مسه الخير منوع، وقيل: هو الحقود الحسود، وقيل: هو الجهول لقدره، وفي الحكمة: من جهل قدره هتك ستره.

قلت: هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود، وقد فسر النبي ﷺ معنى الكنود بخصال مذمومة، وأحوال غير محمودة؛ فإن صح فهو أعلى ما يقال، ولا يبقى لأحد معه مقال.

### ﴿وَأِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾

أي: وإن الله عز وجل شأؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد، كذا روى منصور عن مجاهد، وهو قول ابن عباس<sup>(٣)</sup>، وقال الحسن وقتادة ومحمد بن كعب: ﴿وَأِنَّهُ﴾ أي وإن الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع؛ وروي عن مجاهد أيضا<sup>(٤)</sup>.

(١) ضعيف: الحكيم الترمذي (١/ ٢٦٧) في نوادر الأصول.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الطبري (٣٠/ ٣٠٦) في تفسيره، والسيوطي (٦/ ٦٥٣، ٦٥٤) في الدر المنثور.

(٤) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠/ ٣٠٦) في تفسيره.

## ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: الإنسان من غير خلاف، ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أي: المال؛ ومنه قوله تعالى ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقال عدي:

ماذا تُرجي النفوسُ من طلب الـ خيرٍ وحُبِّ الحياةِ كآربِها

﴿لشديد﴾ أي: لقوي في حبه للمال، ويقال: ﴿لشديد﴾ لبخيل، ويقال للبخيل: شديد ومتشدد، قال طرفة:

أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطنُني عقليَّةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

يقال: اعتامه واعتمائه؛ أي: اختاره، والفاحش: البخيل أيضا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] أي: البخل، قال ابن زيد: سمى الله المال خيرا؛ وعسى أن يكون شرا وحراما؛ ولكن الناس يعدونه خيرا، فسماه الله خيرا لذلك، وسمى الجهاد سوءا، فقال: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَقَضَلُوا لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤] على ما يسميه الناس، قال الفراء: نظم الآية أن يقال: وإنه لشديد الحب للخير؛ فلما تقدم الحب قال: شديد، وحذف من آخره ذكر الحب؛ لأنه قد جرى ذكره، ولرؤوس الآي؛ كقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] والعصوف: للريح لا للأيام، فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم طرح من آخره ذكر الريح؛ كأنه قال: في يوم عاصف الريح.

## ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿١٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ ﴿٢١﴾

قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي: ابن آدم ﴿إِذَا بُعِثَ﴾ أي: أثير وقلب وبحث، فأخرج ما فيها، قال أبو عبيدة: بعثت المتاع: جعلت أسفله أعلاه، وعن محمد بن كعب قال: ذلك حين يبعثون، الفراء: سمعت بعض أعراب بني أسد يقرأ: «بِحشر» بالحاء مكان العين؛ وحكاها الماوردي عن ابن مسعود، وهما بمعنى، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ميز ما فيها من خير وشر؛ كذا قال المفسرون. وقال ابن عباس: أبرز، وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جبير ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم «حَصَّلَ» بفتح الحاء وتخفيف الصاد وفتحها؛ أي: ظهر، ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي: عالم لا يخفى عليه منهم خافية، وهو عالم بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم، وقوله ﴿إِذَا بُعِثَ﴾ العامل في ﴿إِذَا﴾ «بُعِثَ»، ولا يعمل فيه «يَعْلَمُ»؛ إذ لا يراد به العلم من الإنسان ذلك الوقت، إنما يراد في الدنيا، ولا يعمل فيه «خَبِيرٌ»؛ لأن ما بعد ﴿إِنَّ﴾ لا يعمل فيما قبلها، والعامل في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ «خَبِيرٌ»، وإن فصلت اللام بينهما؛ لأن موضع اللام الابتداء، وإنما دخلت في الخبر لدخول ﴿إِنَّ﴾ على المبتدأ، ويروى أن الحجاج قرأ هذه السورة على المنبر يحضهم على الغزوة، فجرى على لسانه «أن ربهم» بفتح الألف، ثم استدركها فقال: «خبير» بغير لام، ولولا اللام لكانت مفتوحة، لوقوع العلم عليها. وقرأ أبو السمال: «أن ربهم بهم يومئذ خبير». والله سبحانه وتعالى أعلم .

## سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ أي: القيامة. والساعة؛ كذا قال عامة المفسرين، وذلك أنها تفرغ الخلائق بأهوالها وأفزعها، وأهل اللغة يقولون: تقول العرب قرعتهم القارعة، وفقرتهم الفارقة؛ إذا وقع بهم أمر فظيع، قال ابن أحمر:

وقارعة من الأيام لولا  
سبيلهم لزاحت عنك حيناً

وقال آخر:

متى تفرغ بمررتكم نسؤكم ولم توقد لنا في القدر نار  
وقال تعالى ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ [الرعد: ٣١] وهي الشديدة من شدائد الدهر، ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ استفهام؛ أي أي شيء هي القارعة؟ وكذا ﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ كلمة استفهام على جهة التعظيم والتضخيم لشأنها، كما قال: ﴿ الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ [الحاقة: ١] على ما تقدم.

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب على الظرف، تقديره: تكون القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، قال قتادة: الفرّاش الطير الذي يتساقط في النار والسراج<sup>(١)</sup>، الواحد فراشة، وقاله أبو عبيدة، وقال الفراء: إنه الهمج الطائر من بعوض وغيره؛ ومنه الجراد، ويقال: هو أطيش من فراشه، وقال:

طُويشٌ من نفرٍ أطياشٍ  
أطيش من طائرةِ الفَرَّاشِ

وقال آخر:

وقد كان أقوامٌ رددت قلوبهم  
عليهم وكانوا كالفَرَّاشِ مِنَ الْجَهْلِ

وفي «صحيح» مسلم عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفرّاش يقعن فيها، وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي»<sup>(٢)</sup>، وفي الباب عن أبي هريرة، والمبثوث: المتفروق، وقال في موضع آخر: ﴿ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ [القمر: ٧]، فأول حالهم كالفرّاش لا وجه له، يتحير في كل وجه، ثم يكونون كالجراد،

(١) صحيح: الطبري (٣٠ / ٣١٠) في التفسير.

(٢) صحيح: مسلم (١٩ / ٢٢٨٥) في الفضائل.

لأن لها وجهاً مقصده، والمبثوث: المتفرق والمشتت، وإنما ذكر على اللفظ: كقوله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [النمر: ٢٠] ولو قال المبثوثة فهو كقوله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] وقال ابن عباس والفراء: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ كغوغاء الجراد، يركب بعضها بعضاً، كذلك الناس، يجول بعضهم في بعض إذا بعثوا.

### ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾

أي الصوف الذي ينفش باليد، أي: تصير هباءً وتزول؛ كما قال جل ثناؤه في موضع آخر ﴿هَبَاءٌ مُنَبِّئًا﴾ [الواقعة: ٦٦] وأهل اللغة يقولون: العهن: الصوف المصبوغ، وقد مضى في سورة «سأل سائل».

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ فهو في عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿﴾

قد تقدم القول في الميزان في «الأعراف والكهف والأنبياء»، وأن له كفة ولساناً توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات، ثم قيل: إنه ميزان واحد بيد جبريل يزن أعمال بني آدم، فعبر عنه بلفظ الجمع، وقيل: موازين، كما قال:

فلكلِّ حادثة لها ميزانُ

وقد ذكرناه فيما تقدم، وذكرناه أيضاً في كتاب «التذكرة» وقيل: إن الموازين: الحجج والدلائل، قاله عبدالعزيز بن يحيى، واستشهد بقول الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذا مرةٍ عندي لكلِّ مُخاصمٍ ميزانُهُ

ومعنى ﴿عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: عيش مرضي، يرضاه صاحبه، وقيل: ﴿عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي فاعلة للرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها، فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد، فالعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة، فهي فاعلة للرضا، كالفرش المرفوعة، وارتفاعها مقدار مائة عام، فإذا دنا منها ولي الله اتضعت حتى يستوي عليها، ثم ترتفع كهيتها، ومثل الشجرة فرعها، كذلك أيضاً من الارتفاع، فإذا انتهى ولي الله ثمرتها تدلت إليه، حتى يتناولها ولي الله قاعداً وقائماً، وذلك قوله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣] وحيثما مشى أو تنقل من مكان إلى مكان، جرى معه نهر حيث شاء، علواً وسفلاً، وذلك قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦٦] فيروى في الخبر إنه يشير بقضيبه فيجري من غير أخذود حيث شاء من قصوره وفي مجالسه، وهذه الأشياء كلها عيشة قد أعطت الرضا من نفسها، فهي فاعلة للرضا، وهي أنزلت وانقادت بذلاً وسماحة، ﴿فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ﴾ يعني جهنم، سماها أما، لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أمه، قاله ابن زيد<sup>(١)</sup>، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فالأرضُ مَعْقِلُنَا وكانت أمنا فيها مَقَابِرُنَا وفيها نُؤلَدُ

وسميت النار هاوية، لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها، ويروى أن الهاوية اسم الباب الأسفل من

(١) صحيح إليه: الطبري (٣٠٠ / ٣١٠) في تفسيره.

النار، وقال قتادة: معنى ﴿فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ﴾ فمضيره إلى النار (١)، عكرمة: لأنه يهوي فيها على أم رأسه، الأخفش ﴿أُمَّهُ﴾: مستقره، والمعنى متقارب، وقال الشاعر:

يا عمرو لو نالتك أرماحنا كنت كمن تهوي به الهاوية

والهاوية: المهواة، وتقول: هوت أمه، فهي هاوية، أي: ثاكلة، قال كعب بن سعد الغنوي:

هوت أمه ما يبعث الصبحُ غادياً وماذا يؤذي الليلُ حين يؤوب

والمهوي والمهواة: ما بين الجبلين، ونحو ذلك، وتهوى القوم في المهواة: إذا سقط بعضهم في إثر بعض، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ الأصل «ما هي» فدخلت الهاء للسكت، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وابن محيصن: «ما هي». نارٌ بغير هاء (٢) في الوصل، ووقفوا بها، وقد مضى في سورة «الحاقة» بيانه، ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي: شديدة الحرارة، وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «ناركم هذه التي يوحد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلها مثل حرها» (٣)، وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: إنما ثقل ميزان من ثقل ميزانه، لأنه وضع فيه الحق، وحق لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خف ميزان من خف ميزانه، لأنه وضع فيه الباطل، وحق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفاً، وفي الخبر عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «أن الموتى يسألون الرجل يأتهم عن رجل مات قبله، فيقول ذلك مات قبلي، أما مرَّ بكم؟ فيقولون: لا والله، فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون! ذهب به إلى أمه الهاوية، فبشئت الأم، وبشئت المريبة» (٤)، وقد ذكرناه بكماله في كتاب «التذكرة»، والحمد لله.

(١) صحيح: انظر الطبري (٣٠ / ٣١٠) في تفسيره.

(٢) قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (ص ٧٩).

(٣) متفق عليه: البخاري (٣٢٦٥) في بدء الخلق، ومسلم (٢٨٤٣) في الجنة.

(٤) حسن بشواهده: الحاكم (١٣٠٢، ١٣٠٣) موصولاً عن أبي هريرة - رضي الله عنه، ومرسلاً عن الحسن، ورواه الطبراني وابن مردويه، عن أبي أيوب كما في الدر المنثور (٦ / ٦٥٦) وكذا ذكر رواية ابن مردويه عن أنس، وأرسله عبيد بن عمير كما في مصنف ابن أبي شيبة (٧ / ١٦٤)، والطبري (٣٠ / ٣١١) في تفسيره مقطوعاً على الأشعث بن عبد الله وهي كلها أسانيد تتعاضد فيما بينها.